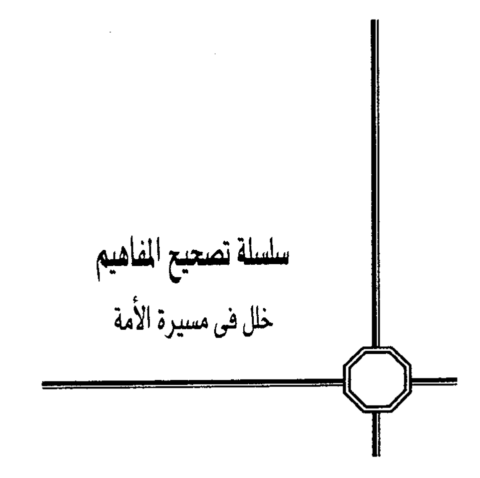

سلسلة تصحيح المفاهيم
خلل فى مسيرة الأمة

سلسلة تصحيح المفاهيم



# خللٌ فى مسيرة الأُمَّة

دكتور
محمد السيد الجليند
رئيس قسم الفلسفة الإسلامية
دار العلوم — جامعة القاهرة

الناشر
دار قباء
للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

اسم الكتاب: سلسلة تصحيح المفاهيم ( خلل فى مسيرة الأمة )

اسم المؤلف : د. محمد السيد الجليند

سنة النشر : ٢٠٠٦م

رقم الإيداع : ٢٢٨٤٦ / ٢٠٠٥م

الترقيم الدولي : 5 - 511 - 303 - 977

الناشر

دار قباء

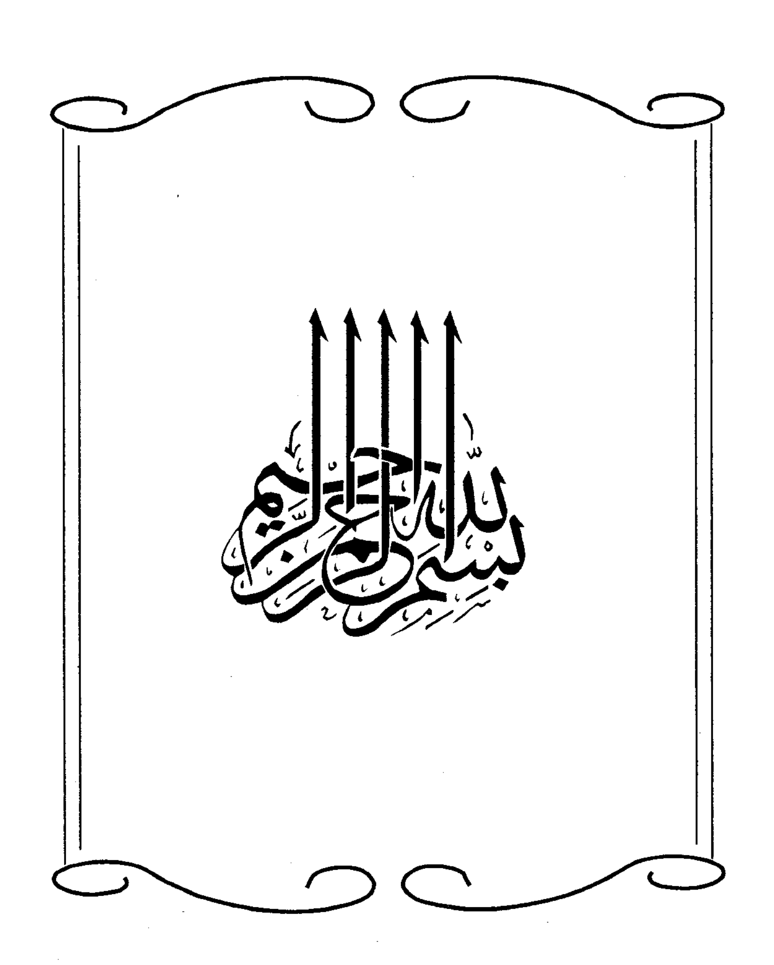
للطباعة والنشر والتوزيع



(١٦) عمارات العبور شارع صلاح سالم
الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس : ٠٢/٢٦٢١٣٦٥

محمول : ٠١٢/٣١٤٠٣١٥


بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم

لا شك أن هذا الموضوع يمس مشكلة كبرى تعاني منها الأمة الإسلامية من ثلاثة أو أربعة قرون من الزمن، إنها مشكلة التخلف الحضاري عن مواكبة العصر علميا واقتصاديا وسياسيا.

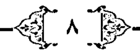
ولقد شغلت هذه القضية عقول المفكرين المعنيين بهموم الأمة منذ وقت بعيد، فلم يغب عن عقول أبنائها البحث والتساؤل عن الأسباب التي أدت بالمسلمين إلى هذا الواقع المرير. فشغل بها مفكرون كبار منذ القرن التاسع عشر، وربما قبل ذلك بكثير.

ولو تتبعنا تاريخ المنطقة وقرأناه بعيون عربية وإسلامية ربما نجد هناك محاولات كثيرة ملأت أرجاء العالم العربي بقصد النهوض بالأمة من واقعها، فكانت ثورة محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب تمثل نهضة روحية لإحياء العقيدة الصحيحة في قلوب المسلمين، ومحاولة القضاء على مظاهر الجهل والخرافة ومحاربة الشعوذة والسلوك الهابط الذي لا يقره عقل ولا دين.

وكانت ثورة المهدي بالسودان تمثل نهضة سياسية ضد الاستعمار ومناشدة للحرية السياسية وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وكانت ثورة السنوسي في ليبيا وعبد القادر الجزائري وابن باديس، وكان الهدف الأسمى لكل الثورات هو تغيير واقع الأمة وإحياء الروح الدينية الصحيحة وارتداء وشاح العلم والمنهج العلمي في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية.

ثم جاءت حركة الإصلاح الديني والاجتماعي في مصر على يد الإمام محمد عبده وشيخه الأفغاني، فأكدت ما نادت به الثورات التي سبقتها من ضرورة التغيير الشامل لواقع الأمة والنهوض بها والتخلص من قبضة الاستعمار، التي استحكمت على مقاليد الأمور السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وتحولت مصر على يد بريطانيا المستعمرة إلى مزرعة كبرى تحصد منها ثمارها (القطن والحبوب) ولا تترك لأبنائها إلا الفتات.

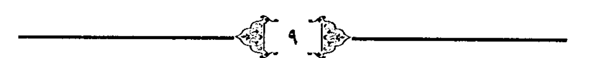
نعم. لقد شغل واقع الأمة عقول مفكريها من زمن بعيد، وحاولوا طرح العديد من الأسئلة عن أسباب هذا الواقع المؤلم، فكتب رشيد رضا وشكيب أرسلان عن أسباب تخلف المسلمين وغيرهم ... وأخذ كل فريق يتلمس الأسباب انطلاقًا من تشخيصه



لـــنوع الأزمـــة التي تعاني منها الأمة؛ وهل أسباب هذه المعاناة هو تدهور الاقتصاد بسبب إحكام قبضة الاستعمار على مقاليد الحركة الاقتصادية المتمثلة في وسائل الإنتاج وسوق الاستهلاك؟ هل ترجع أســـباب هـــذا الواقـــع إلى سوء الوضع السياسي في المجتمع العربي وتســـلط العقلـــية العسكرية على الشعوب مع ما تتميز به العقلية العســـكرية مـــن مجافاة لمنطق العلم والسياسة في كثير من الأحيان وأخذها بمنطق القوة والتسلط؟

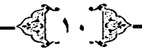
هل ترجع هذه الأسباب إلى الجهل وتفشي الأمية، مما ترتب عليه ضياع حقوق المواطن وتغييب إرادة الأمة؟

أم تتجسد هذه الأسباب في وطأة الاستعمار وإحكام قبضته عـــلى المـــنطقة – وخاصـــة بعد أن توطنت الصهيونية في المنطقة وأخـــذت تمد خيوطها العنكبوتية إلى أصحاب القرار السياسي في العـــالم الإسلامي بأسلوب الترغيب أحيانا وأسلوب الترهيب أحيانا أخـــرى؟ ولا يخفـــى على من يتابع ما يجري في المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية أن هذا السبب الأخير قد يكون له الحظ الأوفر من بين الأسباب السابقة في تدهور الوضع في المنطقة العربية إلى الحد الذي وصلت إليه.



ولكـــن لابد لنا من وقفة نستدعى فيها تاريخ أمتنا، لنتعرف منه على المواقف التي مثلت منعطفات أو منحنيات في مسيرة تاريخها ونـــتعرف أيضـــا كيف اجتازت الأمة هذه المنحنيات بروح قوية وعزيمة لا تعرف الكلل ابتداء من تاريخ الحروب الصليبية إلى حرب أكـــتوبر الأخيرة مرورا بدورات ومنحنيات بعضها يمثل الانكسار والهزيمة والبعض الآخر يمثل الانطلاق والبطولة والانتصار، وهذا هو شـــأن الأمم والحضارات، فلا يخلو تاريخ أمة من فترات الانكسار والهـــزيمة، ولكـــن الأمـــم الناهضة هي التي تعرف كيف يتحول الانكســـار عـــلى يد أبنائها إلى زاد ومشاعل تضيء لها الطريق إلى النصر والنهوض، كما انتصر صلاح الدين في حطين وسيف الدين قطـــز في عين جالوت، وكما انتصر المصريون على الحملة الفرنسية وحملة فريزر وفي حرب أكتوبر، فالعبرة التاريخية ينبغي أن تكون هي الـــدرس المســـتفاد من وقائع التاريخ بدلا من الانكفاء على الذات واجترار الأحزان.

نعم، قد يقال إن الظرف التاريخي قد تغير ولابد أن يتغير نمط الـــتفكير وأســـلوب التحدي للواقع، هذا صحيح بل هو من ألزم الضروريات التي تجب مراعاتها فيما نحن بصدده، لكن مع ذلك تبقى الركـــيزة الأساســـية في نهضة كل أمة وبناء مستقبلها... إنها إرادة



الأمـــة. إنهـــا إرادة التحدي للواقع، إنها إرادة النهوض وتجاوز هذه الأزمـــات وهذه الإرادة ينبغي ألا تتحمل مسئولية النهوض بها جهة واحـــدة ولا جهـــة ثقافية معينة ولا طرف معين من أطراف البناء الاجـــتماعي للأمة. إنها مسئولية الأمة كلها أفراد وجماعات حكام ومحكومـــين، مثقفين وعوام، لأن الخطر الذي يواجه الأمة لا يعرف الاستثناء أو الاختيار، فلابد أن يسهم كل فرد في البناء بما يستطيع.

ومن قراءتنا لتاريخ النهضات للشعوب نجد أن عوامل النهوض التي أسهم بها الأفراد والجمعيات الأهلية كانت الأساس والركيزة لبناء النهضـــة وتشـــييد الحضـــارة، قبل أن تنهض بذلك الحكومات أو المؤسسات الرسمية للدولة وهذا واقع في كل بلاد العالم. وكان واقعا في تاريخ أمتنا، من خلال الأوقاف الإسلامية على المشروعات الخيرية التي نهضت بها الأمة، فكان هناك أوقاف على مؤسسات التعليم ودور الحكمـــة التي يمثلها في عصرنا مراكز البحوث العلمية وأوقاف على دور اليـــتامى والمسنين وأوقاف على الأسبلة (جمع سبيل وهو مكان الســـقاية بالماء للمحتاجين) وأوقاف على الأرامل ومن لا عائل لهم، وأوقـــاف عـــلى الكلاب الضالة والحيوان الضال. فأين الدور الذي كانت تنهض به الأوقاف الإسلامية في عصرنا الحاضر..؟. أليس من المفـــيد إحياء دور الوقف، وحسن توظيف أمواله في تأسيس مراكز



البحــث العلمي، وابتعاث العلماء في جميع التخصصات بعثا لنهضة علمية نحن أحوج أمم الأرض إليها ؟ لماذا لا ينهض الأزهر بالشروع في إعــادة نظــام الوقف الإسلامي من جديد، والبحث عن أفضل الوســائل لحســن توظــيفه ليسهم في بناء الأمة وبعث نهضتنا من جديد؟... لم يكن الوقف في الإسلام مقصورًا على المساجد والأزهر فقــط كما قد يظن ذلك البعض، لقد شمل الوقف كل شئون الحياة علمــيا واجتماعــيا و لم تكن الدولة تتحمل أعباء مالية في قليل ولا كــثير... فلماذا لم ينتبه الأزهر إلى إحياء هذه السنة، لنعيد إلى الحياة الإســلامية وجهها الاجتماعي المشرق، حتى تتفرغ الدولة لما هو أهم من ذلك، هذا جانب مهم على مستوى العمل والتطبيق يجب إحياؤه، ولكن هناك جانبا آخر نود الإشارة إليه أن الوفاق الوطني بين صفوف الأمة عامل مهم في توحيد الكلمة والجهد وتوحيد الهمة والإرادة، فلم يعــد هناك متسع للتشرذم والتحزب الثقافي والسياسي؛ لأن القضية الآن هــي أن تكــون أو لا تكون، والعدو متربص بالأمة كلها على اختلاف توجهات أبنائها، فلماذا لا تتوحد الكلمة أمام عدو لا يفرق بــين الــيمين أو اليســار، ولا بين تقدمي ورجعي، ولا بين ليبرالي ومحافظ، فالكل عنده يمثل طرفا واحدا ينبغي استئصاله. و لم يعد هناك متســع لمــن يدعي أنه يملك الحقيقة المطلقة أو يدعي أنه وحده على صــواب أو أنه الأحق بالسلطة واحتكارها دون غيره. لابد من إعادة



النظر في أنماط التفكير التي تأسست عليه بنية العقل العربي المعاصر.. لابد من إعادة قراءة التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي الذي كون هذه البنية العقلية المعاصرة. لنقف على العناصر التي ينبغي أن نتخلص منها في مناهجنا الدراسية والإعلامية والثقافية ونتعرف أيضا على العناصر الضرورية التي نحتاج إليها في إعادة صياغة العقلية المستقبلية للأمة. ونحن من جانبنا لا ندعي أن ما نشير إليه هنا من عناصر يمثل الخط الذي لا يجوز تجاوزه وإنما هي علامات قد تضيء الطريق لصاحب القرار، وإن شئت فقل هي شمعة تنتظر من يضيف إليها ليزداد النور نورا ويكون نور على نور ويتضح الطريق أمام أصحاب القرار أكثر وأكثر.

ذلك أن المراجعة النقدية لمكونات العقل العربي المعاصر تكشف لنا عن أوجه قصور متعددة أصابت مناهجنا الدراسية بالركود والجمود، مما انعكس على عقلية الأمة فأصابها بشيء من السكون إلى الواقع والرضى به والالتفاف حوله ورفض تجاوزه.

ولكن القضية تحتاج إلى إعادة نظر ومراجعة شأن كل شيء يتعلق بشئون الحياة المتغيرة المتطورة... وينبغي أن نفرق في هذا السياق بين ما اتفق عليه بأنه ثابت لا يتغير من مسائل الأصول وثوابت العقيدة، و الذي يحتاج منا إلى مراجعة ومتابعة لضرورة التجديد

والتغــــيير حســـب تجدد الظروف ومستحدثات العصر من مشكلات وقضــــايا تفــرض بطبيعتها البحث عن حلول ومواجهة، لأنها لم تكن موجودة في عصر التأليف والتأسيس للعلوم الإسلامية، وكذلك الأمر بالنســـبة لبعض القضايا التي ورثناها في تراثنا وجعلناها ركنا أساسا في مناهجنا الدراسية فإنها تحتاج أيضًا إلى مراجعة لنتخلص من المسائل التي نشـــأت تحـــت ظروف تاريخية معينة، وأصبحت تمثل عبئا ذهنيًّا على المعـــلم، والمتعلم وانتهت ظروفها التاريخية ومناسبتها الثقافية، وحدثت أمـــور وظهـــرت إشكالات ثقافية لم تكن موجودة من قبل ينبغي أن تأخذ مكانها وتحتل مكانتها في مناهجنا الدراسية، كما فعل الأقدمون تماما بقضايا ومشكلات عصرهم.

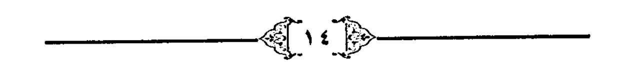
وســـوف أشير هنا إلى بعض القضايا التي أرى أهمية التوقف أمامها بنظر نقدي أملا في الإصلاح.

محمد السيد الجليند

١ رمضان ١٤٢٦ هـ

٤ أكتوبر ٢٠٠٥





# ١

# خلل في فقه الاعتقاد

من الأمور التي كان لها دور كبير في واقع الأمة الإسلامية هذا الخلل الخطير الذي أصاب الأمة في فهم عقيدتها والوقوف بهذه العقيدة عند مجرد ترديد الشهادتين وإقامة الشعائر الدينية دون ترجمة لهذه العقيدة ولا لمفرداتها إلى واقع يعيشه المسلم في صباحه ومسائه يحيا به المسلم سحابة نهاره وسواد ليله، وكيف اقتصر حظ المسلم من دينه على هذه الأمور النظرية والمظهرية معا، دون أن تملأ هذه العقيدة على المسلم حياته كلها فتشغل قلبه وتحرك جوارحه تحت مظلة الاعتقاد الصحيح علما وعملا. اعتقادا وسلوكا. على نحو ما كان عليه المسلمون يوم أن سادوا نصف الكرة الأرضية في أقل من قرنين من الزمان. ولا تحسبن يا أخي أن نهضة الأمم وحضاراتها – أية أمة – سادت أو قامت دون أن يكون الدافع والمحرك لها في نفوس أبنائها وفي عقولهم عقيدة واعتقاد، إن هذا الأمر لم تخل منه حضارة أية أمة على ظهر الأرض؛ مهما كان اعتقادها وعقيدتها صحيحة أو باطلة

مقــبولة في العقل أو مرذولة فإن العقيدة ودورها في نهضة الأمم سنة مــن سنن التاريخ، وعليك أن تدور بناظريك في الحضارة الإنسانية قديمها وحديثها، لا تجد أمة نهضت وقامت لها حضارة إلا كان الدافع لذلك والمحرك لــه اعتقاد أبنائها، وإياك أن تغتر بزخرف القول الذي يردده البعض عن الحضارة الأوربية أنها حضارة علمانية لا دين لها ولا عقــيدة. فــإن ذلك من خلل الرأي الذي استقاه البعض من ظواهر شــكلية تطفــو على السطح أحيانا في الكتابات والسلوك الأوربي، والواقع أن هذه الحضارة مسكونة بعقيدة تحركها على محاور متعددة لتحقق بذلك مقاصد وغايات تبنتها الحضارة الأوربية قديما ولا زالت تحركها إلى الآن، ولعل من أبرز هذه العقائد الأوربية:

١- الــتفوق والعنصرية الآرية الذي صرح به أفلاطون وأرسطو قديما وصرح به رينان ووزير خارجية إيطاليا حديثا.

٢- مركــزية الحضارة الإنسانية التي طفحت بالتعبير عنه كتابات المستشرقين.

٣- نفي الآخر وعدم الاعتراف به، وهذه الركائز الثلاث تتبناها السياســة الأمريكــية بعد الحرب العالمية الثانية وجسدتها في قالــب العولمــة الذي تروج لــه الآن. والحضارة الإسلامية



ليســـت بدعا في ذلك، فإن المحرك الأساسي لبنائها ونهضتها كانت وستظل هي العقيدة الإسلامية باعتبارها العامل المحرك للمســـلم لـــيعمل ويكد. وللعالم المسلم ليبحث ويكتشف، ولـــلحاكم المسلم ليقيم العدل ويسوس بالحق، وللغني المسلم لـــيأخذ بيد الفقير والمسكين؛ لأن الكل يستظل بعقيدة تجعل مـــنه خلـــيفة لله في أرضه، وأمينا على كونه يعبده العالم في محراب العالم، كما يعبده الساجد في محراب الكعبة، ويوم أن فقه المسلمون عقيدتهم على هذا النحو سادوا الدنيا وعمروها. ســـادوها بالعمل وعمروها بالعلم، فهل لنا أن نفقه عقيدتنا عـــلى نحو عملي كما كان عليه الأولون دون الاكتفاء منها بالشكليات والمظهر.

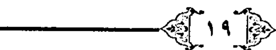


## أ – خلل في درس الاعتقاد

ومن مظاهر الخلل الذي أصاب مناهجنا التعليمية قضية الفصل بين القضايا العقدية وتطبيقها على مستوى الدرس والتعليم وعلى مستوى السلوك والعمل، مما ترتب على ذلك انفصال في ذهنية الدارس بين الاعتقاد والعمل، بين المبدأ والسلوك، إن هذا الفصل – مع اعترافنا بأنه مدرسي– قد خلق نوعًا من الانفصال وإن شئت فقل الانفصام بين الاعتقاد والسلوك، بين الإيمان والعمل، بين المبدأ والتطبيق، وتحولت مسائل الاعتقاد إلى نوع من التصديق القلبي الذي لا يمتد أثره إلى تحرك الجوارح لتعمل تطبيقا لهذا الاعتقاد القلبي ، وهذا بالتالي قد أدى إلى نوع جديد من الإرجاء الذي زحزح العمل والسلوك عن مكانته الطبيعية في ضرورة الارتباط والاقتران بالتصديق القلبي ، هذا الارتباط الضروري الذي عبر عنه الرسول ﷺ في قوله: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، فجعل عمل الجوارح علامة وآية دالة على صدق ما في القلب، ولعل ما نشاهده في حياة الناس وسلوكهم من الخلل الواقع في الاكتفاء من الإيمان بالشكل دون المضمون وبالظواهر الشكلية دون الوصول إلى الجوهر يرجع في أساسه إلى الخلل المنهجي الذي دأبت عليه مناهجنا الدراسية والتعليمية في الفصل بين القضية العقدية وما يترتب عليها في السلوك والواقع.

ولقـــد تنبه إلى خطر هذه القضية الإمام أبو حامد الغزالي ، وأشار في مقدمة كتابه إحياء علوم الدين إلى الخطر الذي يعاني منه الفـــرد المســـلم والمجـــتمع المسلم من الانفصام الواقع بين الاعتقاد والسلوك، وألف كتابه العظيم وسماه "إحياء علوم الدين" لينبه بذلك إلى أن عقـــيدة المسلم ما لم يحولها المرء إلى واقع وسلوك فهي عقيدة ميتة لا تنتج أثرا ولا تنهض بالمجتمع، ولذلك جعل مقدمة كتابه بابا مســـتقلا عن قواعد العقائد أو أصول الدين ثم أخذ يشرح في ثنايا كتابه المفردات والمسائل الجزئية التي تتفرع وتبني على هذه القواعد الكلية، وهذه المسائل الجزئية تشكل في مجموعها الدائرة الكبرى التي ينبغي أن يسير في فلكها المسلم لينفع بذلك نفسه كما ينفع مجتمعه، كمـــا يظهر مدى حرص الإسلام على أن تكون حياة المسلم ذات هدف وغاية تستمد قيمتها من قيمة الإنسان في الوجود وغايتها من غاية وجود الإنسان نفسه باعتباره خليفة الله في كونه، لتتحول حياة المسلم إلى حركة وعمل دائب وبالتالي يتحول المجتمع كله من حالة السكوت والموات إلى حركة نابضة بالحياة ، وما لم يتحول المجتمع المســـلم من حالة السكون التي يعيشها ويحول عقيدته من مستوى الإيمان القلبي إلى سلوك وواقع يعيش في ظله الفرد والمجتمع لن تنهض الأمـــة مـــن كبوتها ؛ لأن قانون النهضة مرتبط بالأخذ بالأسباب وكفانا تمن بدون عمل.





## ب- خلل فى المنهج والتوصيف

لقد شغل كثيرون من علماء الأمة بالتأليف في تصنيف العلوم وتوصـــيفها؛ فعل ذلك الفلاسفة الكبار أمثال الكندي والفارابي وابن ســـينا والخوارزمي وابن خلدون، وجاء توصيفهم للعلوم في معظمه عـــلى نحو يقسم العلوم إلى علوم شرعية وغير شرعية أو علوم دينية ومدنية أو علوم الحكمة، أما العلوم الشرعية فتشمل العلوم التي تتصل بخدمـــة الكـــتاب والســـنة وسماها البعض علوم الوسائل مثل النحو والصـــرف وعـــلم اللغة والتفسير والعلم بأسباب النـــزول والمحكم والمتشـــابه والناسخ والمنسوخ وعلم القراءات، وكذلك ما أطلق عليه مجموعـــة "علـــوم الحديـــث" مثل مصطلح الحديث وعلوم المتـــن والسند.. الخ وعلم الفقه والأصول وعلم الكلام أو علم أصول الدين.

ويتضـــح مـــن تـــاريخ نشأة هذه العلوم أنها كلها قد نشأت استجابة لحاجات دعت إليها الضرورة، التي تمثلت في ظهور اللحن في قراءة القرآن وظهور نوع من التفسير القرآني مخالف في بعض جوانبه مـــا أثـــر عـــن الرسول وصحابته، فهذه العلوم في جملتها نشأت في أحضان الكتاب والسنة ولخدمة النص القرآني تفسيرا وتأويلا وضبطاً لألفاظه- ومن هنا فضل المصنفون أن يطلقوا عليها "علوم شرعية" في مقابل مجموعة العلوم المدنية، وترتب على هذا الوصف "شرعية" فهم



خاطئ نشأ في أذهان المسلمين أن ما عدا هذه العلوم لا يوصف بأنه علم شرعي ولا يستحق هذا النسب الشريف. وبالتالي فإن الاشتغال بهذه العلوم المدنية يكون عملا غير شرعي ، بل ربما نسبه البعض إلى البدعة، ومعلوم أن العلوم المرتبة حسب هذا التصنيف هي علم الفلك والطـــب والرياضة والهندسة والكيمياء والفيزياء... الخ مجموعة العلوم الكونـــية التي نبغ فيها علماء كبار في تاريخ الحضارة الإسلامية أمثال البيروني وابن الهيثم والخوارزمي وجابر بن حيان.. وغيرهم من رواد هـــذه المدرسة العلمية ، وكان نصيب هذه الكوكبة من العلماء الغم والـــلمز والنـــيل من عقائدهم لأن بعض المشتغلين بالعلوم وجدوا في مؤلفـــات هـــؤلاء أقوالا وآراء لم يكن لهم علم بها وليس لديهم من الكتاب والسنة دليل على صحتها.

وترتب على ذلك أن نشأ نوع من الزهد والعزوف عن الاشتغال بهذه العلوم حتى إن أبا حامد الغزالي (حجة الإسلام) يقول: كنت أدخل القرية أو المحلة فأجد فيها أربعين فقيهًا ولا أجد بها إلا طبيبا واحدا من أهل الذمة، ولعل هذا كان بسبب التوصيف لهذه العلوم بأنها ليست مندرجة ضمن العلوم الشرعية. وهذا خطأ منهجي ينبغي أن يتدارك ويصحح، لأن العلوم الكونية جديرة بالوصف الشرعي، مثل نظيراتها تماما. وأولى بالمشتغلين بها أن



يوصفوا بأنهم يمارسون عملا شرعيا دينيا ندب إليه الشرع وأمر به، وقد جاء القرآن الكريم لينبه إلى أهمية وضرورة الاشتغال به فأمر به وجعل الرسول ﷺ طلبه فريضة، لأن العلم الكوني هو المدخل الطبيعي للتعرف على الله والتعرف على صفاته وهو النافذة الوحيدة لتسخير الكون لمصالح الإنسان وتحقيق خلافة الإنسان على أرض الله، وهو المفتاح العلمي لتحقيق خشية لله سبحانه: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (١). أي بهذه العلوم السابقة في الآية. فانظر كيف جعل القرآن هذه العلوم مدخلا عمليا لخشيته سبحانه في عبارة بلاغية قاصرة خشية الله على العلماء بصنعته.

* * *

### جـ - تجديد علم الكلام



تأسس علم الكلام الإسلامي للقيام بمهمة الدفاع عن العقيدة الإسلامي ضد مخالفيها من منكري الأديان أو منكري النبوات،

---

(١) سورة فاطر آية [٢٧].

فأسس منهجه على أدلة العقل وبراهين المنطق في الدفاع عن صحيح العقيدة مستعينا في ذلك بنصوص القرآن الكريم وصحيح السنة المطهرة، وقد أبلى المتكلمون في ذلك بلاء حسنا وقد أدوا دورهم التاريخي في الذب عن العقيدة الإسلامية ودحض الأباطيل والأوهام التي كان يرددها المخالفون، والذي يقرأ تاريخ هذا العلم الرائع يجد أنه كان يهتم بقضايا ومشكلات عقائدية أفرزها طبيعة الاحتكاك الثقافي بين الحضارة الإسلامية وأصحاب الحضارات الأخرى والقضية معروفة لا داعي لتفصيل القول فيها.

وفي مطلع القرن الثاني الهجري وجدنا مشكلات علم الكلام تظهر واحدة تلو الأخرى مثل مشكلة خلق القرآن، مشكلة حرية الإنسان، مشكلة الذات والصفات، وكلما ظهرت مشكلة عقائدية كان يتصدى لها علماء الأمة - رضي الله عنهم أجمعين - بالتحليل العقلي والتفنيد والشرح وبيان ما فيها من خطأ وتدليس، ثم يوضحون الرأي الصواب الذي يؤيده العقل ويدل عليه الشرع بالحجة الواضحة والدليل المعقول، فأدوا رسالتهم كما فرضها عليهم دينهم أما الأجيال التالية ونحن منهم، فقد توقفنا حيث وقفوا هم، وأخذنا نحلل ونفند ونشرح ونوضح المشكلات التي طرحت عليهم، والتي عاشوها في عصرهم وأهملنا تماما المشكلات التي نعيشها نحن

في عصرنا، والتي تحتاج منا أن نحللها ونشرحها ونتولى تفنيدها وبيان وجه الحق فيها، وأن نجعل ذلك جزءا من مهامنا العلمية حتى ننهض بواقعنا كما نهضوا بواقعهم، بدلا من أن نكتفي باجترار آرائهم وتكرار أقوالهم، ولا يظن أحد أنني بذلك أقلل من شأن علماء الكلام أو أقلل من جهدهم كما قد ظن ذلك بعض إخواننا، ولكني أنعي على علماء عصرنا هذا السكون العقلي وأنبه إلى وجوب أن نفعل كما فعل الأقدمون، وأن نعيش مشكلات واقعنا كما عاش علماء الأمس مشكلات واقعهم وقاسوها بمقياس العقل والشرع معا فأخذوا منها وردوا عليها، وقبلوا من غيرهم وأعطوا فلماذا لم نفعل مثل ما فعلوا هم؟ إن واقعنا المعاصر مزدحم بالمشكلات التي لها أثرها في عقول الناس وفي سلوكهم فلماذا لم نهتم بها ونجعلها جزءاً من مفردات مناهجنا الدراسية ؟ ليتعلم الشباب من ذوي الاختصاص وجه الحق فيها ولكي نصحح مفهومها عند الناس، خذ مثلا بعض المشكلات التي طفحت على السطح الثقافي مثل القول بتاريخية الأديان، تاريخية القرآن، تاريخية الأحكام الشرعية كالميراث مثلا. فقه الجهاد، الغلو والتطرف... الإنسان ومكانته، الحرية... الخ هذه المشكلات التي تحتاج إلى بحث دقيق وتحليل ونقد وتقديم الرأي الديني العقدي فيها، إن مشكلات علم الكلام القديم قد ظهرت في

ظـــروف تاريخـــية تشبه تماما واقعنا المعاصر من وجوه كثير فتناولها العـــلماء الكـــبار فهمـــا وفقها ونقدا وتفنيدا فلماذا لم نطرح هذه المشكلات المعاصرة وغيرها ضمن برامجنا الدراسية ليتعرف الشباب عـــلى أصول هذه المشكلات ومصادرها وظروف البيئة الثقافية التي أفرزتها وكيف ولماذا وفدت إلينا ؟ وما هي الأهداف والمقاصد التي يبتغيها الغرب من طرح هذه المشكلات على العالم الإسلامي ؟



## د – عقيـــدة السببية

مـــن عوامل الخلل في مسيرتنا التاريخية أننا أغفلنا تماما عقيدة الأخـــذ بقـــانون السببية أو الاعتقاد بالسببية على أنها دين وعقيدة وســـنة من سنن الله في الكون، وأن القرآن الكريم قد نبه إلى أهميتها وضرورة الإيمان بها على أنها نظام ثابت في الكون ونظام مطرد ولا يـــتخلف أبـــدا إلا لتحقيق مشيئة الخالق سبحانه وتعالى عند إظهار المعجـــزة على يد النبي ﷺ تصديقا لـــه وتأييدًا لرسالته، ألا فليعلم المســـلم أن عصـــر الرسالات قد انتهى وختم بإرسال نبينا ومعلمنا محمـــد ﷺ، وليعـــلم المسلمون أيضا أن عصر المعجزات قد انتهى



بوفاته ﷺ ومن دلائل الإيمان به والتصديق برسالته أن نعتقد اعتقادا جازمًا أن سنن الله ماضية ومطردة لا تتخلف وأن من طلب النهضة بغــير الأخذ بأسبابها فقد طلب المستحيل، ولذلك أنبه هنا إلى أهمية الأخــذ بالأسباب كمدخل ضروري للوصول إلى الغايات وتحصيل المقاصــد، بل إنني أقترح أن تحتل عقيدة السببية مكانتها ومكانها في مناهجنا الدراسية كجزء أساسي من مفردات المنهج الدراسي حتى ينشأ الجيل وهو مؤمن بهذه القضية كإيمانه بالله وبسننه المطردة. ومما نلفــت النظر إليه أن عقيدة السببية ثابتة ومطردة في عالم الطبيعيات كمــا هي ثابتة ومطردة أيضا في عالم الاجتماع البشري، ولا فرق في ذلك بين نتائج القانون في العالمين الطبيعي والبشري.

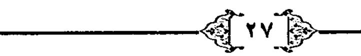
فــإن ذلــك كله يخضع لعقيدة السببية التي عبر عنها القرآن الكريم بالسنة والسنن قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [1] وللأســف الشــديد فــإن المسلمين قد أهملوا تماما الإيمان بعقيدة السببية، فلم يعتبروها في مسيرتهم التاريخية و لم يعتبروا بسنن الأولين كيف قامت الحضــارات ولماذا اندثرت، وكيف قامت الممالك ؟ ولماذا انهارت

(١) سورة آل عمران آية [١٣٧].

لغـــيابهم عن الاعتقاد بأن سنة الله جارية لا تتخلف أبدا، ومن المهم أن نشـــير هـــنا إلى أن عقيدة الأسباب محايدة لا تعرف المجاملة ولا المحاباة، فمن أخذ بأسباب النصر لابد أن ينتصر حتى ولو كان غير مســـلم، ومن أخذ بأسباب النهضة لابد أن ينهض مهما كان دينه واعتقاده حقا أو باطلا صوابا أو خطأ، ومن أهمل هذه العقيدة فلم يأخذ بها لابد أن يجني ثمرة هذا الإهمال تخلفا وهزائم وهوانا ومذلة.

وأخيرا فانظر بطرفك في الأمم الناهضة في عصرنا لنتعلم منها كـــيف أخذت بأسباب النهضة فنهضوا مع أن منهم من يعبد البقرة — حـــتى الآن – ومنهم من يعبد النار — حتى الآن – ومنهم من لا ديـــن لـــه لنعلم من ذلك أن عقيدة السببية دين والتزام نبهنا إليها القـــرآن وحـــذر من إهمالها، فإذا أردنا النهضة فعلينا أن نبحث عن أسبابها النفسية والروحية والمادية. لتستقيم مسيرة النهوض.





## هـ ـ خلل فى إرادة النهوض

ممـــا لا ريب فيه أن واقع الأمة الإسلامية المعاصر يمثل منعطفا تاريخـــيا لم يحـــدث أن عاشته الأمة من قبل؛ تفرقا في الرأي والهدف. اختلافا في الأهواء والانتماءات، وبالتالي تحزبًا وتعصبا إذ كل حزب بما لديهم فرحون مما يسر لعدوهم أن يلتهم أوطانهم بلدا وراء الآخر بعد أن حـــدد مواقـــف الأقطار الأخرى مستعملا معهم سلاح الترغيب والترهيب، ولا شك أن هذا الواقع المؤلم قد طرح على عقول المفكرين أسئلة عديدة: كيف ولماذا وصل الأمر بالأمة الإسلامية إلى هذا الواقع المـــتردي؟ مع أنها تملك وسائل النهوض التي حرم منها كثير من البلاد الأخرى، إن الأمة الإسلامية تملك الأرض والماء، وتملك الثروة والطاقة، وتملـــك العقـــول وأصحاب الرأي، ومع ذلك ما زالت معظم البلاد الإســـلامية تأكل مما يزرع غيرها، وتلبس مما ينسج غيرها، وتستعمل الآلات التي صنعها غيرها. فأين الخلل إذن، لماذا وإلى متى سيظل العالم الإســـلامي يحيا على هامش التاريخ بعد أن كان صائغًا له؟ ولعل من أهـــم الأسباب التي أوصلت الأمة إلى هذا الواقع المؤلم افتقاد الإنسان لإرادتـــه وذاتيـــته وخاصـــة أهل الرأي والفكر في الكثير من البلاد الإســـلامية. فـــإن إرادة النهضة لا يجسدها في الواقع إلا عقول هؤلاء



العلماء ولا يترجمها إلى حياة يعيشها الإنسان إلا فكر هؤلاء العلماء، وعلى أيديهم يتم النهوض بالأمة ؟

وهنا يأتي السؤال التاريخي. هل هيأت الأمة الإسلامية لعلمائها ومفكريها البيئة النفسية والمناخ الفكري الصالح لكي يشغلوا أنفسهم بقضايا الأمة ؟ عليك أن تدور بناظريك في موقف الأمم الناهضة من علمائها ومفكريها وقضايا البحث العلمي، وقارن ذلك بموقف الأقطار الإسلامية من علمائها ومفكريها لتجد الإجابة على السؤال المطروح... كيف ولماذا وصل واقع الأمة الإسلامية إلى هذا الوضع المتردي. وأظن أنه من غير المقبول هنا التذرع بالأوضاع الاقتصادية للدول الإسلامية لأن من بين هذه الدول الإسلامية من يملك من الثروة ما لا نظير له في البلاد الناهضة. ولكن هم عرفوا كيف وأين تنفق الأموال وتستثمر الثروات أما نحن فقد تاهت ثرواتنا في أضابير النزوات والأهواء الشخصية. ويقيني أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.



## و – أثر الاستبداد السياسى فى إعاقة النهضة

أعني بالاستبداد هذا المعنى الجامع لكل مظاهر الطغيان الذي يمارسه فئة من البشر نصبوا أنفسهم وكلاء عن الله في توزيع ثوابه وعقابه على من يريدون من الناس بدون ضوابط ولا معايير إلا التنفيس عن رغبة جامحة، وليس البلاء في ذلك قاصرا على نظام حكومي معين بل هو شائع في معظم المؤسسات الاجتماعية والحكومية في شتى بلاد المسلمين، ولقد عرف الكواكبي هذا النوع من الاستبداد بأنه "تصرف يقوم به فرد أو جماعة في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة" أو هو تصرف الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون" وفشو ظاهرة الاستبداد في العالم الإسلامي قد أثر في نهضة الأمة تأثيرا سلبيا، لقد قتل الهمة والإرادة والعزيمة في الإنسان. فالإنسان حين يخالجه الإحساس بضياع حقوقه وامتهان كرامته ومحاصرة عقله وفكره ورأيه واستلابه حق التعبير والمشاركة في تدبير شئون وطنه وقيادة الأمة ليحتل مكانه صاحب الهوى وذو الثقة فيسند الأمر إلى غير أهله، والويل كل الويل لأمة أسند الأمر فيها إلى غير أهله. عند ذلك تسود النــزعات الفردية وحلول الظلم والطغيان محل العدل والمساواة، هذا هو النذير العريان في خراب العمران وسقوط الدول. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا



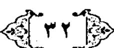
لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [1]. وقال سبحانه: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [2]. فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين، وهذه إحدى سنن الله في إقامة الممالك وانهيارها، فإن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة فهذا قانون عام في انتظام الملك أو انهياره، ولا علاقة لهذا القانون الإلهي بدين أو ثقافة، فمتى وجد الظلم والاستبداد في أمة فانتظر نهايتها المؤلمة، واعلم أن ذلك مؤذن بخراب الدولة يقول ابن خلدون: (فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران: اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن مصيرها وغايتها وانتهائها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء على الرعية — يكون انقباض الرعايا عن السعي والاكتساب وإذا أجر المرء على العمل تحت سيف، الظلم فإنه لا ينتج إلا مقتلة للوقت والجهد.

* * *

(١) سورة الكهف آية [٥٩].
(٢) سورة إبراهيم آية [١٥].

## ح- الإحساس بالهزيمة النفسية

يعـيش المسلم المعاصر حالة من الانهزامية النفسية، يستشعر خلالها نوعًا من الإحساس بالدونية إذا ما قارن واقعه المعاصر بواقع الأمـم الناهضـة، وهـذه الهزيمة النفسية تمثل هدفا مقصودا وغاية منشودة يسعى العدو إلى زرعها في المجتمع المسلم بصفة عامة والأمة العربـية بصفة خاصة، وقد يستعين على تحقيق هدفه الخبيث ببعض الأقـلام التي تربى أصحابها على موائد الاستعمار، ليكونوا وكلاء عـنهم وسماسـرة لترويج فكرهم الانهزامي بين شباب الأمة، وقد يسـعون إلى ربـط هـذا التخلف الذي يعيشه المسلمون بتراثهم وقرآنهم، ويجعلون من الدين سببا في إعاقة النهضة كما قال ويقول ذلك كثير من المستشرقين، ولا شك أن الشعور بالدونية والإحساس النفسي بالانهزامية مرض خطير ينبغي اقتلاعه من بين صفوف الأمة، لأن ذلـك قد يؤدي إلى شيوع روح اليأس بين الشباب، فيقعدهم عن العمل والنهوض والانكفاء على الذات وعدم المبادرة وقتل روح الابتكار والإبداع، وينبغي محاربة هذه الظاهرة والقضاء عليها بقراءة تاريخ الأمة ومعرفة النوازل التي مرت بها، وحاولت إعاقة حركتها وكـيف حـول المسلمون هذه النوازل إلى منطلقات لحركة الأمة لتواصـل مسيرتها من جديد، وهذا يقتضي من المفكرين أن يعملوا عـلى بـث روح القوة والاعتزاز بالذات ومعرفة أن للحضارات



أعمـــارا وأن سنة التدافع ماضية بين البشر وهي التي تحرك التاريخ وتصـــنعه وتلك الأيام نداولها بين الناس، وإرادة الأمة للنهوض لابد لهـــا من قوة دافعة تحركها لتحقيق غايتها المقصودة وهذا لا يتم إلا بالقضاء على هذه الروح الانهزامية والإحساس بالدونية، والأهم من ذلك أن يعي الجيل الدرس المستفاد ويأخذ العبرة من الواقع ولا يترك الأحـــداث تمر في غفلة منه دون أن يتساءل عن الأسباب، إن عقدة الإحســـاس بالدونية تمثل عاملا خطيرا يعوق إرادة النهضة ويقضي عـــلى روح المبادرة، فلا تنهض النفس للحركة ولا يكون لها نزوع إلى العمـــل والتغـــيير، بـــل تكون أقرب إلى الخمول ومحبة الكسل وتفضـــيل القعـــود عـــلى النهوض، ولقد حذر كثير من مؤرخي الحضـــارات مـــن خطر هذه الظاهرة النفسية التي تنتاب الشعوب المهـــزومة، ومـــا يترتب على ذلك من حدوث خلل واضطراب في إرادة الأمة يترتب عليه محاولة الاكتفاء بتقليد المغلوب للغالب واتخاذ المنتصـــر مثالا وقدوة للمهزوم، وما بالك إذا كان الغالب في زماننا هـــو الذي يفرض علينا ضرورة تقليده ومتابعته حذو القذة بالقذة، وإن تغيب إرادة الأمة للنهوض نتيجة هذا الإحساس بالدونية يشكل نذيـــرًا بفـــناء الأمـــة وانمحـــاء شخصـــيتها وفقدان هويتها وقتل خصوصيتها.



## ز- خلل في صلتنا بكتاب الله

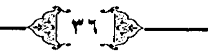
لقـــد نزل القرآن الكريم على العرب وهم أمة أمية تعيش في جاهلـــية عمياء فأعاد صياغتها من جديد، نفسيا وعقليا ووجدانيا حتى كانت المعجزة التي أذهلت العالم، حيث استطاع النبي ﷺ أن يفتح بهذه القلة القليلة في العدد والعدة بلاد الفرس والروم وأن ينشر دعـــوة الإسلام شرقًا وغربًا، لأنه أحسن بناء الإنسان وأجاد تربية الأمة التي صاغها القرآن صياغة جديدة، فحملت حضارة القرآن إلى العالم كله، لأنهم حين قرأوا القرآن وفقهوا مقاصده وغاياته تحولوا تلقائيا من عصبيته للقبيلة إلى الشورى، ومن ظلم الجاهلية إلى عدل الإســـلام، قال أبو عبد الرحمن السلمي: كنا نتعلم العشر آيات من القرآن ولا نتجاوزها حتى نعلم ما فيها من علم وعمل" هكذا حتى صار الواحد منهم في سلوكه وفي علاقاته قرآنا يمشي على الأرض، ولقـــد جســـدت السيدة عائشة رضي الله عنها هذا المعنى التربوي النبـــيل حـــين سئلت عن الرسول ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. فكان ﷺ يعيش بقلبه ووجدانه في جو قرآني ويحيا في سلوكه بقيم القرآن، فكان عقله وقلبه مع الله وبالله حين يقرأ آيات تتحدث عن الله، ومـــع الكون في آياته الباهرة وآلائه في تدبر وتفكر حين يكون الحديث عن آيات الله الكونية وأسرارها، ومع دروس التاريخ وعبره حـــين يكون الحديث عن الأمم الماضية وتاريخهم ومصائرهم، ومع

الآخـــرة وأحوالها حين يكون الحديث عن يوم القيامة ومصائر عباد الله فـــيها، فكـــان ﷺ يعيش مقاصد الآيات وأهدافها، ولا يكتفي بمجرد تلاوة اللسان التي قد لا تتجاوز الحناجر. وعلى هذا النحو من الفقـــه والـــتدبر والمعايشة كان موقف الرسول ﷺ وصحابته من القـــرآن الكريم تلاوة وتأملا ذكرا وفكرا حتى تشربت قلوبهم معاني القرآن الكريم، فصاغت الأمة كلها صياغة قرآنية.

ومـــا نجده في واقعنا المعاصر يختلف تماما عما كان عليه جيل الصـــحابة والـــتابعين، حيـــث تحول اهتمام المسلمين بالقرآن إلى ممارســـات شكلية وأعمال مظهرية ليس لها أثر في سلوك الفرد ولا في تشكيل وجدان الأمة، لقد انصرف اهتمام المسلمين بقرآنهم إلى مجـــاهدات مضـــنية في الـــتلاوة وضبط مخارج الحروف بين حلقي وشفوي ولهوي ومجاهدات مضنية في كيفية الغن والمد المتصل والمد المنفصـــل، ومـــا إلى ذلك مما يتصل بالمحافظة على شكل الكلمات القرآنـــية متلوة على اللسان. أما محاولة الفهم والتأمل وتحويل معنى الآية إلى واقع يعيشه المسلم فهذا قد انصرفت عنه جهود الأمة حتى حـــل بها ما حل، ونجد في تاريخ علم الكلام نمطًا من النظر المذهبي والـــتأويل الكلامـــي لآيـــات القرآن الكريم ممثلا في موقف الفرق الإسلامية من المعتزلة والأشاعرة من الآيات القرآنية، التي يستدلون بهـــا على صحة مذهبهم الكلامي، وفي نفس الوقت يوضحون بها خطأ مذهب المخالفين لهم من الفرق الأخرى، ولعل أكبر مثال على

ذلـــك موقـــف الفـــريقين من آيات أفعال العباد والقضاء والقدر، وموقـــف الفريقين من آيات الهداية والضلال، وموقف الفريقين من آيات الحسنة والسيئة الخ.

فإن هذه القضايا – وغيرها كثير– قد وردت الآيات القرآنية بشـــأنها في ســـياقات متنوعة ودلالات مختلفة مما يتطلب من المتأمل والمفسر أن يفهم معنى الآية في ضوء سياقها الذي سيقت من أجله، وفي ضوء دلالتها القرآنية في هذا السياق بعينه دون غيره، لأن دلالة الكـــلمة تختلف ضرورة في فهم معناها تبعا لسياقها في داخل النص المعين عن معناها في سياقات أخرى، ومحاولة الاستدلال بها على أمر آخـــر تختلف عن سياقها داخل النص المعين خطأ كبير، قد يترتب عليه أن يفهم البعض أن آيات القرآن يناقض بعضها بعضا، ويضرب بعضـــها بعضا، وهذا ما أدى إليه موقف الفريقين فعلا، حيث تبنى كل منهما موقفا فكريا مسبقا، ثم حاول فهم آيات القرآن في ضوء موقفه الفكري السابق، ليستدل بذلك على صحة موقعه من جانب وخطأ موقف المخالف من جانب آخر مع أن الآية القرآنية لو تأملها المتكـــلم في ضوء سياقها داخل النص وفي ضوء دلالتها اللغوية، لما كـــان بـــين الفريقين هذا الخلاف المذهبي الكبير الذي أثار الفرقة والخلاف بين المسمين مفكرين وأتباع على سواء، وسوف أضع بين يـــدي القـــارئ بعض النماذج التي تبين كيف تعامل المتكلمون مع آيـــات القـــرآن، وكـــيف أدى لهم هذا المنهج إلى خلاف ما زال

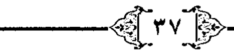


المسلمون يكتوون بناره إلى الآن.

هـــذه بعض المعوقات لمسيرة الأمة نحو نهضتها المرجوة ولابد لتصحيح المسيرة أن تصح الإرادة من الجميع خاصة أولي الأمر وهم – الحكام والمثقفون- في ضرورة النهوض وأولى هذه الخطوات التي ننـــبه إلى أهميـــتها هـــنا هي وحدة الإرادة قبل الحديث عن إرادة الوحـــدة. ففي وحدة الإرادة تتجسد أهداف الأمة ويتعالى الجميع على الخلافات السياسية والمذهبية والعرقية، لأن الظرف الذي نعيشه أكبر من كل هذه الخلافات، ونجد في العمل على إحياء مفهوم الأمة المفتاح الحقيقي للتعالي على هذه الخلافات، والعمل على أن نوحد إرادتنا حول ما يتفق عليه الجميع وهي مساحة كبيرة ويعذر بعضهم بعضـــا فـــيما يختلفون فيه وهي مساحة ضئيلة ولابد منها في كل الـــثقافات وهـــي سنة الله في خلقه ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولكن لا ينبغي أن نجعل هذه الخلافات وسيلة لنيل الآخر من ثقافتـــنا ومحو هويتنا، لأن الرهان الذي تحمله طبيعة المعركة هي أن نكون أو لا نكون.

والله مـــن وراء القصد، وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.





٢

# تكريم الإنسان
## دين وعقيدة



إن نهضة الأمم – أي أمة – من كبوتها لابد لها من فكر نظري تنطلق منه وبرنامج عمل يلتزم به الفرد وتؤمن به الجماعة وتستند إليه في مسيرتها التاريخية، ولابد لها من غاية مأمولة تسعى إليها وتجعلها هدفا مقصودًا تسعد بتحصيلها، ولابد لها كذلك من عقيدة تصدر عنها تمثل الباعث والمحرك لأفراد الأمة وجماعتها، وتمثل في نفس الوقت مركز الدائرة أو قطب الرحى لحركة المجتمع كله وعلى سبيل المثال، فإن أمريكا في سياستها المعاصرة تصدر عن عقيدة راسخة تؤمن بها وتعمل على إذاعتها بين الشعوب، وتحاول جاهدة إقناع العالم بها، ألا وهي عقيدة – السيادة الرسالية – إنها تعتبر نفسها صاحبة رسالة في هذا العالم المعاصر، رسالة احتواء العالم

ثقافيا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا باسم الديمقراطية حينا، وباسم الحرية حينا، وباسم تحرير الشعوب حينا، وهذه العقيدة ترسخت في عقول ساكني البيت الأبيض جيلا بعد جيل ورئيسا بعد رئيس؛ فلقد صرح رؤساء أمريكا كارتر، وريجان، وبوش الأب، وأخيرا بوش الابن الذي أعلن في مؤتمر صحفي أنه جاء بقواته إلى شعب العراق، تنفيذا لأوامر الرب وبمباركة من العناية الإلهية ليحرر شعب العراق ومن يتابع القرار السياسي الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية وحتى الآن يجد هذه العقيدة راسخة في العقول، وتمثل عاملا محركا للقرار السياسي الأمريكي، وخاصة في مواقفه التاريخية مع إسرائيل وضد القضية الفلسطينية، ولا تخلو أمة من الأمم من الإيمان بعقيدة راسخة في أذهانها تؤمن بها وتجعلها منطلقا لحركتها التاريخية في بناء نهضتها ومصدر حضاراتها، وعليك أن تقرأ تاريخ الحضارات الإنسانية قديما وحديثا فلا تجد حضارة منها إلا وراءها عقيدة تصدر عنها، وتؤمن بها، وتجعلها نبراسا وضياء لها في مسيرتها التاريخية؛ حدث ذلك في الحضارة المصرية القديمة، وحضارة اليونان والفرس والرومان قديما وحدث ذلك في الحضارة الغربية والأمريكية المعاصرة، فكانت العقيدة عاملا محركا لمسيرة هذه الحضارات كلها، ولا فرق في ذلك بين هذه العقائد سواء كانت صحيحة أو باطلة، مقبولة في منطق



العقـــل أو مـــرذولة والأهم من ذلك عند أصحابها أنهم يؤمنون بها ويعـــتقدون صحتها ويتخذونها منطلقا لحركتهم التاريخية ويحددون في ضوئها المعالم الرئيسية في علاقاتهم بالأمم الأخرى.

والحضـــارة الإســـلامية بدورهـــا ليســـت بدعا من بين هذه الحضارات، ولا هي شاذة عنها، فهي بدأت مسيرتها التاريخية حاملة لواء عقيدة سماوية ذات حقيقتين متمايزتين ومتكاملتين معا في نفس الوقت، لا يمكـــن فصـــل إحداهما عن الأخرى لا في الاعتقاد القلبي والتصديق العقلي، ولا في السلوك العملي والعلاقات الاجتماعية، وللأسف الشديد فإن الخلل قد أصاب هاتين الحقيقتين في مسيرتنا التاريخية.

**أمـــا الحقيقة الأولى:** فقد جسدتها عقيدة التوحيد الخالص لله ســـبحانه التي ملأت — وينبغي أن تملأ – على المؤمن قلبه ووجدانه، التوحـــيد الخالص– ينبغي أن يتكيف فى ضوئها سلوك المؤمن، ويحدد علاقاته مع الله، ومع نفسه، ومع الكون، ومع الإنسان، فإذا أحب أو كـــره، إذا والى أو عادى، إذا اقترب أو ابتعد، إذا تكلم أو سكت، فإنمـــا ينبغي أن يكون ذلك كله من أجل الله الذي يمثله في دنيا الناس ســـلوك يقوم على كلمة الحق، وقول الصدق، وشهادة العدل، وأداء الأمانـــات، وهذه المعاني الأربعة يتفرع عنها مفردات ولواحق تنتظم

حـــياة الناس كلها كما تنتظم علاقة الحاكم بالمحكوم، والتي من أهم وظائفها سيادة هذه المعاني الأربعة وشيوعها لتسود حياة الأمة كلها.

أما الحقيقة الثانية فقد جسدها القرآن الكريم في عقيدة تكريم الإنسان الذي استخلفه الله على هذا الكون، وجعله أفضل المخلوقات جميعها، وخلقه على صورته، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تكريما وتفضيلا لــه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾(1).

وهذه المـــترلة الكريمة التي اختص الله الإنسان بها ليست ميزة لجنس دون آخر ولا للون دون آخر ولا لعرق دون آخر، وإنما هي منـــزلة تكريم وتفضيل وتشريف للإنسان من حيث هو إنسان أيا كان هذا الإنسان بصرف النظر عن جنسه ودينه وعرقه، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾(2).

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ

(١) سورة ص: ٧١- ٧٣.
(٢) سورة الإسراء: ٧٠.

إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

وقال ﷺ في خطبة الوداع تقريرا وتعليما لهذه العقيدة القرآنية: « **أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود. الناس سواسية كأسنان المشط** »[2].

وحين سادت عقيدة التكريم للإنسان، وتشربتها قلوب المسلمين في صدر الإسلام تلاشت الفوارق الطبقية، وانمحت عادات الجاهلية التي كانت تسود العلاقات الاجتماعية بين الناس، وأخذ كل مسلم يستمد عزته من عزة خالقه، وأصبح ميزان التفاضل بين الناس مختلفا عما كان عليه قبل الإسلام فليس المال ولا السلطة، ولا حسب القبيلة ولا نسبها، كل ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة في المفاضلة بين السيد والعبد، وإنما جاءت عقيدة تكريم الإنسان لتؤسس معيارا آخرًا للمفاضلة بين بني البشر، جسدها الآية الكريمة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾[3]، هذا المعيار الجديد في

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) وردت خطبة الوداع في مواضع كثيرة من كتب الحديث وبألفاظ متقاربة انظر: مسند الإمام أحمد.

(٣) سورة الحجرات: آية [١٣].



المفاضـــلة جعل عبد الله بن مسعود (وهو نحيف خفيف الوزن) يزن عـــند الله جبل أحد، وجعل بلالا الحبشي وهو العبد الأسود أفضل عند الله من سادة قريش ووجهائها، ولقد ترتب على إيمان المسلمين بهذه العقيدة أن عاش المسلم آمنا في سربة معافى في ماله وفي عرضه وفي بدنـــه، فاستقرت نفسه واطمأن قلبه، وتحركت همته للتعمير في الأرض والإنـــتاج والتنمية، فبنوا حضارة وأسسوا نهضة عمروا بها أركان المعمورة.

أمـــا في العصر الراهن فقد غابت عنه عقيدة تكريم الإنسان وابـــتعدت بهـــا السبل عن مصدرها الإيماني العقيدي، لتكون رهنا بـــإرادة الشـــخص وخاضعة لأهوائه وعلاقاته، فلا تضبطها قواعد العقيدة ولا تحركها عوامل الإيمان، وعادت إلى المجتمع الإنساني مرة أخـــرى عـــادات الجاهلية الأولى، التي فرضها القوى على الضعيف بقـــوة الســـيف والمدفع، ليفرض على الناس الإيمان الزائف بأفضلية جـــنس على جنس، أو لون، على لون أو عرق على عرق، وأحيانا بسيف السلطان ليستذل الحاكم بسلطانه رقاب الرعية، فلا يسمعون في مملكـــته إلا صـــوته، ولا يرون إلا رأيه، ولا يسبحون إلا بحمده وقدسه، وبين صوت المدفع والصاروخ في العلاقات الدولية وسيف السلطان في علاقات الراعي بالرعية ضاعت عقيدة التكريم للإنسان،



التي هي شطر عقائد الإيمان، واحتل مكانتها في عقول الناس الشعار السلطوي الفرعوني "ما أريكم إلا ما رأى" الذي أصبح شعارا دوليا رفعته الدول الكبرى عنوانا لسياستها مع الدول الأخرى، كما رفعه في نفـــس الوقت كثير من الحكام عنوانا لسياسة شعوبهم،وبين هذا وذاك ضـــاعت عقيدة التكريم التي منحها القرآن للإنسان، وانمحت معالمها تحت سطوة سيف السلطان وقذائف الدول الكبرى.

وقد تجسد هذا الشعار الفرعوني في الحركة التاريخية المعاصرة، وفي العالم الإسلامي بصفة خاصة.

لقد انمحت عقيدة التكريم للإنسان من قاموس العالم الإسلامي عـــلى مستوى الجماعات وعلى مستوى الأفراد، وأصبح الفرد المسلم غـــير آمـــن لا على نفسه، ولا على ماله وولده، بل ولا على وطنه، وانعكـــس هذا الموقف النفسي في سلوك الأمم والأفراد خوفا وهلعا، كما انعكس ذلك أيضا في داخل المجتمع الواحد على سلوك الأفراد، فأصـــبح كل فرد مشغولا بالبحث عن مصدر يجد فيه الأمن والأمان لنفســـه وولـــده، وترتب على ذلك كثير من الآثار النفسية السيئة، وخاصة في حياة العلماء والمفكرين وأصحاب الرأي والكلمة، وبذلك تلاشـــى مـــن المجتمع أول عامل من عوامل النهضة وأهم أسس بناء الحضارة وهو الاستقرار النفسي والأمان القلبي لقادة النهضة وروادها،



وهـــم العـــلماء وأصـــحاب الرأي، واختفى من بين صفوف الأمة أصحاب العقل المبدع، والرأي الحر، والكلمة الصادقة، ليحتل مكانهم ومكانتهم من يجيدون فن التزلف والتسلق متسلحين في ذلك بأخطر جهاز عرفته الإنسانية في عصرنا وهو رفع الشعار الذي تتبناه السلطة الحاكمـــة عـــبر أجهزة الإعلام المسخرة لأصحاب النفوذ فقط دون غيرهم، وفي إصرار عجيب ظلت هذه النماذج المتسلقة تدندن حول الشـــعار الذي ترغب فيه السلطة تأصيلا لـــه في عقول الناس وتزيينا وتـــزلفا، ومـــا أكـــثر وسائل الترغيب والترهيب التي اتخذها حكام الشعوب الإسلامية في عصرنا هذا، حتى يجعلوا من آرائهم وشعاراتهم عقـــائد وأديانا يضحى في سبيلها الشعب بالأرض والثروة، فضلا عن النفس والروح وما تجربة العراق منا ببعيد.

إن عقـــيدة تكـــريم بني الإنسان حقيقة دينية ثابتة وأصيلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهي الخطوة الأولى التي يعترف خلالها الإنســـان بذاتيـــته ومكانته، ودوره في تحريك وعي أمته ويقظتها، لينطلق منها إلى بناء النهضة وتشييد أركان الحضارة، وترسيخا لهذه العقـــيدة الدينية وقف الرسول ﷺ أمام الكعبة ليخاطبها قائلا لها: « **والله إني أعـــلم حرمتك عند الله ولكن المسلم أعظم حرمة عند الله**

**منك »** [1]. وأعلى مكانة.

ومن منطلق هذه العقيدة الدينية في تكريم الإنسان، نهض الرسول واقفا حين رأى جنازة تمر أمامه وكانت جنازة يهودي فقال له أصحابه يا رسول الله إنها جنازة يهودي. فقال ﷺ: « **أليست نفسا** » [2]. تنبيها إلى حرمة النفس الإنسانية وعلو شأنها عند الله. ومن هذه العقيدة الدينية في تكريم الإنسان نزل القرآن الكريم، ليعاتب الرسول ﷺ في حادثة ابن أم مكتوم المشهورة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝** ﴾[3].

إن تكريم الإنسان في الإسلام عقيدة ودين عاشها المسلمون في صدر الإسلام عقيدة وسلوكا، علما وعملا، فتلاشت بينهم الفوارق الطبقية والفروق الاجتماعية، وأصبح الكل له دوره في بناء النهضة، وله ذاتيته ومكانته التي فرضت عليه الإحساس بالولاء للأمة وللمجتمع وللحاكم، والشعور بآلام الجميع، وآمال الجميع وتوحد في عقول الجميع الهدف والغاية والمقصد، وكانت كلمة

---

(١) ورد الحديث في البخاري كتاب الجنائز باب من قام لجنازة يهودي.
(٢) انظر الحديث في: الترمذي كتاب البر، ابن ماجه في الفتن، الدار في المناسك.
(٣) أول سورة عبس.

الحـــاكم ورأيه ليس تعبيرا عن هوى شخصي أو تعصبا لميول حزبية أو قبلـــية، وإنمـــا كانت تعبيرا عن أهداف أمة وتحقيقا لمقاصد دين وعقـــيدة، فكان إذا أمر أو نهى كان الجميع يلبي النداء بأذن صاغية وعقول واعية، لأن الجميع يؤمن بدوره ومكانته في البناء الحضاري ونتج عن هذا شعور عام بالانتماء للجماعة والولاء للأمة، دفاعا عن مصـــالحها وجهـــادا في سبيل نهضتها وبناء حضارتها، فنبغ الطبيب والمهندس والفيلسوف والفقيه والرياضي والفلكي، وأسهم الجميع في بناء حضارة كانت لغتها العربية ودينها الإسلام، أظلت العالم قرونا طويلـــة من الزمن، أسعدت العالم ونشرت فيه لواء الأمن والأمان اللذيـــن هما جناحا الاستقرار، وحين فقد العلماء وقادة الرأي عامل الاســـتقرار النفسي، واختفت من حياة الأمة عوامل الأمن والأمان، وتلاشت عقيدة تكريم الإنسان، وخاصة من على مسرح العلاقات بين حكام الأمة الإسلامية ومحكوميها واختفت تبعا لذلك همة كل عـــالم وإرادة كـــل مفكـــر مبدع، انقلبت الأمور في أقطار الأمة الإســـلامية رأسًـــا عـــلى عقب، فبدلا من أن يبحث الحكام عن أصـــحاب الـــرأي وقادة الفكر، ليستعينوا بهم ويستضيئوا بآرائهم، وليكونوا أهل الشورى لهم، وبدلا من ذلك رفع معظم الحكام سيف الترغيـــب والترهيـــب في وجوه العلماء – وهو سلاح تاريخي –

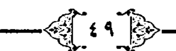


ليسود بين الناس الشعار الفرعوني " ما أريكم إلا ما أرى"، فانزوى أهـــل الفكـــر وأصـــحاب الـــرأي عـــن مسرح الحياة السياسية والاجتماعـــية، ليحتل مكانتهم أهل الثقة ليزينوا لأصحاب السلطان ما هم عليه من سوء الرأي وسوء العمل، حتى ضل سعيهم في الحياة الدنـــيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهذه الظاهرة الاستبدادية تعم كثيرا من البلاد الإسلامية، فلا تجد شعبًا من الشعوب الإسلامية إلا قد انمحى من قاموسه العملي عقيدة تكريم الإنسان على مستوى القرارات أحيانا، وعلى المستوى العلاقات الاجتماعية أحيانا.

وليس المقصود من عقيدة التكريم التي نبهنا إليها القرآن افتعال المواقف التي تلجأ إليها بعض المؤسسات في العالم الإسلامي، تكريما لشـــخص مرموق أو تأبينا لرحيل آخر، وإنما المقصود بذلك خلق البيـــئة الجتماعية التي يحس الإنسان فيها بكرامته، بعيدًا عن المواقف الطبقـــية أو الفئوية أو الحزبية، وبعيدًا أيضًا عن التطلعات الشخصية المتمـــثلة في الأمور المالية أو الاقتصادية. إن عقيدة التكريم للإنسان التي نبه إليها القرآن الكريم فوق ذلك كله وأكبر من ذلك كله، إنها إحســـاس وشـــعور، وأمـــان واطمئنان يعيشه الإنسان في صباحه ومســـائه، يعيشـــه الإنسان في بيته وفي علاقاته الخاصة والعامة، إنه إحســـاس وشـــعور يعيشه المسلم في العلاقات المتبادلة بين الراعي

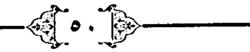
والرعـــية - بـــين الرئيس والمرءوس، بين الغني والفقير، بين الكبير والصـــغير، فلا ييأس فقير من عدل الحاكم، ولا يطمع فيه غني ولا تضيع الحقوق بين الناس بسبب الوساطات والمحسوبيات التي جاء بها الإســـلام، وأن تـــؤدى الأمانات ولا يتوقع المرء إلا كلمة حق عند ســـلطان جائر وشهادة عدل عند ذوي السلطان، ويقيني أن ضياع عقـــيدة الـــتكريم من قاموس الأمة واختفائها من أولويات المجتمع قد أدى إلى اختفاء الإرادة الجماعية للنهوض، وأدى إلى انكفاء العلماء والمفكرين، كل على نفسه وفي داخل ذاته يجتر أحزانه ويلوك آلامه على ما حل بالأمة من التخلف في الوقت الذي تملك فيه الأمة كل عوامل النهوض.

إن هذه العقيدة ينبغي العمل على ترسيخها في نفوس الشباب كأمـــر إلهـــي ومطلـــب شرعي وعقيدة دينية، إن كرامة الإنسان مستمدة من إيمانه بتكريم خالقه ومعبوده، وعزته مستمدة من إيمانه بعـــزة خالقه وحريته وتكريمه يعتمدان على ولائه وعبوديته الخالصة لعزيز لا يذل، وهو الله وقاهر لا يغلب وهو الله وفي إهانته نيل من مقـــام عبوديـــته لـــربه واستهانة بمخلقويته ومكانته التي خصها الله بالـــتكريم والتشريف في أصل الخلقة على سائر مخلوقاته، وأهله بما منحه من أدوات ليكون خليفة على كونه، ومهد لـــه مفردات هذا



العالم وجعلها ذلولا لإرادة وخاضعة لمشيئته، ليعمر بها حياته ويتنعم بما فيها من متاع طيب، وسخر لـــه كل ما في السموات والأرض تكريما لـــه وتلبية لحاجاته وقضاء لمصالحه وتحقيقا لمنافعه ليتحقق فيه ويـــتحقق به معنى العبودية الخالصة لربه وخالقه في هذا العالم، ولقد احـــتفى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بمظاهر تكريم الإنسان باعتبار ذلك عقيدة ودينا يتمثله الإنسان في حياته ويعيشه في واقعه اليومي وفي علاقاته المتبادلة بين الناس جميعا، الكل يعمل على تكريم الكـــل، فلا يعمل أحد على إهانة ما كرمه الله، ولا يسخر أحد مما أعـــزه الله فـــإذا أخطـــأ إنسان أو سقط في سلوكه فقد حدد لـــه الشارع وسائل العقاب ومستوياته على درجات متفاوتة من التعازير والحدود، حسب حجم الجرم الذي ارتكبه أو الخطأ الذي وقع منه، حتى لا تترك الأمور في يد الحكام بلا ضوابط وبلا معايير، وحتى لا تترك مصائر الناس خاضعة لأهواء ذوي السلطان ونفوذهم.

إن تكـــريم الإنســـان عقيدة ودين، ينبغي أن يحتل مكانته في أدبـــيات المجـــتمع وعلى ألسنة الدعاة وأقلام المفكرين حتى ينتبه ذو الســـلطان إلى بشاعة الجرم الذي يرتكبونه في حق دينهم وعقيدتهم وفي حـــق أمتهم أيضا، حين يعمدون إلى إهانة الإنسان والنيل من إنســـانيته الـــتي كـــرمها الله ورفع مكانتها على سائر المخلوقات،



فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي خصه الخالق بأنه خلقه بيديه، قال تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ (١).

وهو الكائن الوحيد الذي خلقه الله على صورته،ولذلك جاء في الحديث، ومن قاتل فليتجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته (٢).

وهو الكائن الوحيد الذي اختصه الله بالخلافة على هذا العالم، وهو الكائن الوحيد الذي تحمل الأمانة التي أبت جميع المخلوقات وأعرضت عن حملها وحملها الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۝٧٢﴾ (٣). وهو الكائن الوحيد الذي شرفه الله بخاصية العقل؛ ليسود به ويسوس به هذا العالم. فلماذا الإصرار على إهمال عقيدة تكريم الإنسان والإصرار على إهانته، إن هذه المعاني ينبغي أن تكون جزءا أساسيا من المنهج

(١) سورة ص : آية [٧٥].
(٢) ورد الحديث البخاري كتاب الاستئذان، ورواه مسلم في كتاب البر وابن حنبل ٢/٢٤٤.
(٣) سورة الأحزاب: آية [٧٢].

التربوي الذي يلتف حوله أبناؤنا في مؤسساتهم التعليمية والتربوية، وينبغي أن نوضح لهم في ضوء هذه المعاني، كيف تقوم العلاقات بين الناس. كيف نرسم علاقات الرؤساء بالمرؤوسين والحكام بالمحكومين، إن تربية الأجيال على هذه المعاني النبيلة والعقائد السامية تخلق فيهم صفات العزة في غير غرور، وتجسد لهم معاني الشمم والإباء في غير كبرياء، يعرفون كيف ومتى يقولون للمخطئ قف أنت على خطأ، ويتصدون له أيا كانت منزلته ومكانته، وكيف ومتى يقولون للمحسن أحسنت ويشدون على يديه وينتصرون له ويؤازرونه، لابد أن نعمل على شيوع عقيدة التكريم للإنسان في مناهجنا الدراسية، لأن ذلك يؤدي إلى خلق الثقة بالنفس والاطمئنان للمستقبل ويقضي على الظواهر السلبية التي تفشت في الأمة وعملت على هدم كيانها وزلزلت أركانها، ومن هذه الظواهر السلبية ظاهرة عدم الانتماء للأمة والوطن، وعدم الاهتمام بالشئون العامة، والانكفاء على الذات والتقوقع داخل النفس، مما قتل في الإنسان المعاصر كل معاني الهمة والإرادة الجماعية والإبداع إذ كيف يتأتى للعالم أن يفكر في التعمير أو التنمية والنهوض والارتقاء بالمجتمع وهو يعيش حياته متقلبا بين هلع في حاضره وخوف من مستقبله ؟



كيف له أن يبدع وهو مهان في مجتمعه، غريب في وطنه؟

كـــيف له أن يبني في الوقت الذي يجد كل شيء حوله يقف أمامه سدا منيعا يعوق حركته ويصد مسيرته ؟

إن عقـــيدة تكريم الإنسان هي نقطة البدء في خلق الإحساس بالـــثقة والشعور بالانتماء، ليجد فيها الإنسان نفسه ويحس بذاتيته، وينتشل نفسه من هذا الإحساس القاتل الذي يعيشه صباحا ومساءً ألا وهو الإحساس بالغربة الذي يعوق كل تفكير في النهضة ويقضي على كل أمل في البناء



### ٣

# نحو قراءة جديدة لعلم الكلام

ارتبطت نشأة العلوم الإسلامية بظروفها التاريخية والاجتماعية التي يرجع بعضها إلى طبيعة الاحتكاك الثقافي بالحضارات المجاورة من فارسية وهندية أولا، ثم بالحضارة اليونانية فيما بعد، لقد أدت الظروف التاريخية والاجتماعية التي عاشها المجتمع الإسلامي إلى نشأة مجموعة من العلوم التي قصد بها خدمة النص القرآن والسنة النبوية المطهرة بطريق مباشر أو غير مباشر، ويمكن أن نميز في هذه المرحلة المبكرة بين مجموعتين من العلوم قصد بهما تحقيق هذا الهدف النبيل هما :

أ- علوم القرآن.

ب- علوم السنة

وتشتمل المجموعة الأولى على علوم التفسير، وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وأحكام القرآن، والمحكم والمتشابه،



وما يتصل بها من علم النحو واللغة والبيان... إلخ.

كمـــا تشتمل المجموعة الثانية على علوم الحديث من الجرح والـــتعديل، ومصـــطلح الحديث، وعلم الرجال، ومن يستفسر في ظـــروف النشأة التاريخية لكل من هذه الفنون يجد لها ظرفا تاريخيا ارتبطـــت به، وكان سببًا مباشرًا للتفكير في هذا الفن أو ذاك، وقد يؤكد لنا ذلك أن نشأة كل من هذه الفنون قد ارتبط باسم علم من أعلامه الكبار يمثل نقطة البدء في الاهتمام بالفن والاشتغال به، يأتي من بعده أعلام فيسيرون على منواله يطورون المسيرة، ويضعون لها القواعـــد والأسس النظرية التي تحولت فيما بعد إلى أصول وقواعد لتعـــلم هـــذا الفـــن وضبط مسائله، حدث ذلك في علم التفسير والحديث والنحو... وغير ذلك من العلوم الإسلامية.

ويأتي علم الكلام في مقدمة هذه العلوم، وربما كان أسبق في تـــاريخ نشأته من كثير منها، فيرتبط في نشأته بموقف تاريخي معين وظـــروف تاريخية عاشتها الأمة في النصف الأول من القرن الأول الهجـــري، وهـــذا الظرف يرتبط تاريخيا بقصة الخروج على الخليفة الراشـــد علي بن أبي طالب من جانب، ونشأة الخوارج من جانب آخـــر، حيث تأسس مذهبهم على قاعدة أن مرتكب الكبيرة كافر



تنـــتفي عـــنه صـــفة الإيمان، وأنه مخلد في النار، لا يدفن في مقابر المســـلمين، لا يصلى عليه، لا يتوارث، وجميع فروض علم الكلام يـــتفقون – فيما أعلم- على أن بحث هذه القضية في مجلس الحسن البصـــري (ت ١١٠هـ) كان سببًا في تجلية موقف الخوارج في هذه المشكلة، وإظهاره لعامة المسلمين، كما تأسس في هذا الموقف أنصار رأى المعتزلة، وقولهم بالمنـــزلة بين المنـــزلتين، واعتبروا أن مرتكب الكبيرة لا يصدق عليه اسم الكافر؛ لأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، كما لا يصدق عليه حكم المؤمن، لأنه ارتكب ما يوجب عليه خلوده في النار من وجهة نظرهم، وكان هذان الرأيان (رأي الخوارج والمعتزلة) في جانب، ورأي الحسن البصري ممثل أهل السنة والجماعة في جانب آخر، حيث اعتبر مرتكب الكبيرة مسلمًا عاصـــيا، إن تـــاب تقبل توبته وتسري عليه جميع أحكام المكلفين بالإســـلام، هذه وقائع تاريخية ارتبط كل منها بموقف معين نتج عنه الاهتمام بهذا العلم وتأسيس قواعده – هذا أمر نحسبه على درجة كافية من الوضوح علم ذلك من علمه وجهل ذلك من جهله.

وإذا عدنـــا بذاكرتـــنا إلى تاريخ علم الكلام، سوف نجد أن مسائله وقضاياه لم تنشأ كلها مرة واحدة، ومن يتتبع تاريخ القضايا الكلامية التي شكلت المادة العلمية لهذا الفن يعلم تماما أن كل مسألة





مـــن مسائله بدأ الحديث عنها بسبب يختلف عن المسائل الأخرى، فمـــثلا. إن الحديـــث عـــن مسألة القضاء والقدر تختلف عن بداية الحديـــث عـــن الجوهر والعرض والذات والصفات، وعلاقة الذات بالصفات... الخ، وهذا البعد التاريخي الذي ارتبطت به مسائل علم الكلام وقضاياه يفرض علينا العلم بتاريخية هذا الفن، وأنه خضع في نشأته وتاريخه لظروف الاحتكاك الثقافي بين المسلمين وأهل الأديان الأخـــرى والتفاعل الحضاري مع الأمم والشعوب التي وصل إليها الإســـلام، فكلما نبتت مشكلة تتصل بالعقيدة أو بركن من أركان الإسلام قام من علماء الأمة من يتولى الدفاع عنها وتوضيح الرأي، بما أتيح له من دلائل العقول وما تيسر له من النصوص قرآنًا وسنة.

وفي أواخـــر القـــرن الـــثاني وخلال القرنين الثالث والرابع، ونتـــيجة طبيعـــية لاحتكاك المسلمين بثقافة الفرس والهند واليونان، حـــدث نـــوع مـــن التلقـــيح الثقافي بين هذه الحضارات الجديدة والحضـــارة الإســـلامية الناهضـــة، وظهـــرت مصطلحات وآراء ومعـــتقدات لم يكن للمسلمين عهد بها من قبل، فأضاف ذلك عبئًا جديـــدًا إلى مهمـــة علماء الكلام، والذي يتتبع مسائل هذا العلم ومفـــرداته ومصـــطلحاته يلحظ بوضوح البعد الزمني لظهور هذه المفـــردات وتلـــك المصطلحات، وعلى سبيل المثال، فإن مصطلح

العرض والجوهر لا نجده في القرن الأول، بينما نجده في أواخر القرن الثاني وفي الثالث بوضوح... وهكذا نجد أن قضايا علم الكلام لم تكن أواخر القرن الثاني وفي الثالث بوضوح... وهكذا نجد أن قضايا علم الكلام لم تكن واحدة في كل جيل، بل كانت تتنوع وتختلف حسب زمانها وملابساتها التاريخية والاجتماعية، وكان المفروض أن يتابع هذا العلم واقع المسلمين وقضاياهم، ثم وجدنا هذا الفن يتوقف تماما في القرن الخامس الهجري عند الاشتغال بقضايا بعينها أضفى عليها المتكلمون شكل المصطلحات الفنية (إلهيات – نبوات – سمعيات)، وأخذت بحوث المشتغلين بهذا الفن تدور حول هذه القضايا الثلاث في ضوء المذهب الذي ينتمي إليه فكريا ومنهجيا – فهذا معتزلي وذاك أشعري وثالث ماتريدي ورابع سلفي. فضلا عن المذهب السياسي كالتشيع أو الأخذ بمذهب الخوارج، وأخذ كل واحد من المنتمين لهذه المذاهب ينتصر لمذهبه بما شاء من أدلة وبراهين يدفع بها حجج خصمه أكثر مما يبين بها وجه الحق في مذهبه.

ولقد أشار الغزالي إلى ذلك في "المنقذ من الضلال" وانتهى إلى هذه الحقيقة: أن كل حزب بما لديهم فرحون"، وأخذت الأجيال التالية تتوارث هذا العلم جيلا بعد جيل (نفس القضايا-



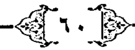
نفس المفردات والمصطلحات- نفس المنهج) وهذا الموقف قد أضفى على علم الكلام وقضاياه لونا من القداسة التاريخية، بحيث إذا رمت إضافة جديدة أو التخلص من قديم بدا ذلك في نظر البعض خروجًا عن الاستقامة وابتداعا في دين الله ما ليس فيه، ولو أنصفنا أنفسنا وأنصفنا مهمة علم الكلام لوجب علينا أن نفعل ما فعله المتكلمون الأوائل، الذين كانوا يتابعون أحداث عصرهم، وكلما جدت مشكلة تتصل بالعقيدة نهضوا لمعالجتها بالمنهج القرآني الذي يجمع في براهينه بين نور العقل ونور الشرع، ولم يتوقفوا أبدا عند قضية بعينها ليجعلوا منها هم المسلمين الأول والوحيد كما هو شأن المشتغلين بعلم الكلام اليوم.

إن قراءة سريعة لما يدور في أروقة الدرس الأكاديمي لعلم الكلام اليوم تكشف عن هوة سحيقة بين واقع المسلمين اليوم، وما يعج به من مشكلات دينية وثقافية وما يلقي على طلبة العلم من دروس دينية تتصل بعلم الكلام، هذا العلم الذي كان يمثل خط الدفاع الأول والحصين ضد حملات التشكيك في الإسلام وعقائده، والذي أصبح الآن تراثا ثقافيا يتعرف الطالب خلاله على آراء وأقوال وحجج الأقدمين التي واجهوا بها حملات التشكيك والتي اعترضت سبيل الدعوة في عصرهم، فيدرس الطالب أصول المعتزلة، من العدل



والتوحـــيد والوعـــد والوعيد والمنـــزلة بين المترلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتفريعات هذه المسائل وسلسلة الحوارات المتبادلة بـــين أوائـــل المعتزلة والمتأخرين منهم وبينهم جميعا والأشاعرة ثم بين أتـــباع المدرســـة الأشـــعرية ومن شايعهم في الرأي وأصبح مقياس المســـتوى العلمي للطالب مرتبطًا بمدى حفظه لآراء هذه المدرسة أو تلـــك وكيفـــية إبطال هذه الحجة أو الانتصار لها ونسج على نفس المـــنوال شيوخ المذاهب المعاصرين لنا الآن في قاعات الدرس العلمي، فـــلم يهتم المعلم بفتح أبواب التفكير أمام طلبة العلم ليكتشفوا حلولا لمشكلات عصرنا الراهنة — وما أكثرها - وإنما عكفوا على التأليف والدرس والتمحيص لآراء القدماء، وأصبح ذلك هو مجال التنافس بين المشتغلين بعلم الكلام أساتذة وطلابا على سواء.

والواقـــع الذي عليه عصرنا يختلف ضرورة عن الواقع الذي عاشـــه القدمـــاء، والمشـــكلات التي نعيشها في واقعنا اليوم تختلف ضرورة عن المشكلات التي عاشها القدماء، والثقافات التي نتحاور معها الآن اختلفت كثيرا عن الثقافات التي حاورها القدماء بالأمس، وكـــل هذا يتطلب من علماء الكلام المعاصرين أن يقوموا بمراجعة شـــاملة لعلم الكلام الذي كانت - ولا زالت - مهمته الأساسية تتمـــثل في الدفـــاع عن الملة الإسلامية ضد خصومها والبرهنة على



عقائدها بالأدلة البرهانية والنقلية على سواء.

إن قضايا علم الكلام ومفرداته ومسائله لم يتناولها القدماء إلا لأنها كانت تمثل مشكلات واقعية فرضت على المجتمع الإسلامي خلال احتكاكه بالحضارات المجاورة له. فهي ليست مشكلات عقلية مطلقة لا علاقة لها بالواقع — ولكنها كانت تمثل واقعا ثقافيا يعيش القدماء همومه في صباحهم ومسائهم وفي مجالسهم العلمية، وعليك أن تراجع تاريخيًا مشكلات علم الكلام وكيف ظهرت في البيئة الإسلامية، لتعرف أن علم الكلام كان مرتبطًا بالواقع ومشكلاته الدينية والثقافية و لم يكن ترفًا عقليا، مشكلة القضاء والقدر، مشكلة الإمامة — مشكلة خلق القرآن - مشكلة الذات والصفات وما تفرع عن هذه المسائل الكبرى من جزئيات وتفريعات لم تكن منفصلة عن واقع المسلمين أبدا، و لم يكن القصد من بحثها في نشأتها الأولى إلا الكشف عن الحلول القرآنية لهذه المشكلات، ولكن طرأ على المسيرة التاريخية لهذا العلم، كما أشرنا سابقا تغير في المنهج والهدف أدى إلى تحول الحوار من حوار مع الخارج المخالف لنا في الملة إلى حوار مع الداخل، تمثل في الحوار بين أصحاب المذهب ومخالفيهم في المذهب وتطور هذا الحوار في لغته وفي مسائله، فبعد أن كان حوارًا بين الداخل والخارج بين علماء الكلام المسلمين

وخصومهم من أهل الملل الأخرى، أصبح حوارًا بين الداخل والداخل، وبعد أن كان مصطلح الخصوم يراد به أهل الملل الأخرى أصبح يطلق على المخالفين من الداخل أصحاب المذاهب الأخرى، وتطور الحوار شيئًا فشيئًا إلى ما يشبه الصراع الداخلي بين الفرق الكلامية، ولم يعد محاورة الخصوم في الخارج هدفًا ولا غاية بقدر ما أصبح الانتصار على الخصوم في الداخل هو المقصد الأسمى لكل فريق، ولم يعدم تاريخ علم الكلام في هذه المسيرة التي انطلقت منذ نهاية القرن الثاني الهجري إلى الآن أن يستعين رجاله بالنفوذ السياسي، ليحققوا بذلك نصرا على مخالفيهم من الداخل بدلا من أن يستعينوا به على الأعداء في الخارج، وأصبح الانتصار للمذهب هو المجال الأرحب الذي يتبارى في ساحته المتنافسون من علماء الكلام معتزلة أو أشاعرة على سواء – وتولد عن ذلك لون من التعصب الممقوت لدى أتباع كل مدرسة، وانعكس ذلك كله على جغرافية العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه.

فتستطيع بسهولة ويسر أن تعرف أن هذا القطر أو ذاك يدين بالمذهب المعتزلي أو الأشعري أو الماتريدي أو السلفي، ولا تعدم أن تجد بين هؤلاء وأولئك من يجد نفسه وحظه ووضعه الاجتماعي في الانتماء إلى مذهب معين وتأليب أصحاب الكلمة والنفوذ على

مخالفيه في الرأي والانتماء.

لعل مما يجب التنبيه عليه اليوم قبل غد خطورة الفرقة والتشتت الذي يعيشه العالم الإسلامي بسبب هذه العصبية المذهبية التي أورثها علم الكلام لأتباع المذاهب، وهذه الفرقة في صميمها تتناقض تماما مع أهداف علم الكلام ومقاصده العليا من توحيد الكلمة وتوحيد الصف أمام الأعداء. فهذا مطلب أساسي من مقاصد عقيدتنا "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا".

الاعتصام بحبل الله في مواجهة مشاكل عصرنا نحن، بفكرنا نحن وعقولنا نحن، وليس بفكر القدماء ولا بعقلية القدماء ولا بمناهج القدماء إن مسائل العقيدة الإسلامية تتمتع باليسر والسهولة والقرب من الفطرة، لا تحتاج في إثباتها إلى ما ورثناه في علم الكلام من التفريعات والتجزيئات التي تنأى بقارئها عن منطق الفطرة وسهولة المأخذ بل قد تثير أحيانا من الشبهات والشكوك أكثر مما تدعو إلى اليقين والاعتقاد.

ومن هنا فإن علم الكلام الذي ندعو إليه الآن يضيف إلى هذه الأصول الإيمانية من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والإيمان بالقدر أمورا هي من لوازمها، فيتناول بالإضافة إليها

الاهتمام بمقتضياتها ولوازمها من العمل والسلوك الاجتماعي ونظام هذه المسائل الأصول تمثل قواعد الإسلام وأسس بنائه، و لم يعد هناك خلاف على أهمية هذه الأصول لدى المسلمين، لكن المشكلة التي تعيشها الأمة الإسلامية في عصرنا هذا تتمثل في تخلي الأمة وعدم اهتمامها بمقتضيات العقيدة الإيمانية من الالتزام بها والسلوك بمقتضاها والعمل على تحويلها إلى واقع، يعيش المسلم في ظله، ويحتمي بحماه، وينعم بالأمن والأمان في كنفه، نعم. المجتمع كله يؤمن بهذه الأصول ويؤدي - في معظم الأحوال - الأركان والشعائر. لكن ليس هذا فقط هو الإسلام، بل هذا يمثل الجانب الغيبي من الاعتقاد في الإسلام. لكن ما يخص الجانب السلوكي والاجتماعي من الإسلام قد تخلى عنه المجتمع، وأصبح في حاجة إلى من يربطه ويصله بعقيدة المسلم، لأن الجانب السلوكي العملي هو المظهر الوحيد للالتزام بالعقيدة وعنوان صلاحها ومظهر لصحة الإيمان وقد يكون عنوانا لتطرق الخلل، فليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

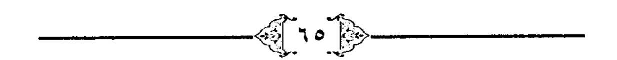
إن الاعتقاد النظري ما لم يتحول على يد أتباعه إلى سلوك وعمل فلا فائدة منه ولا فائدة له في المجتمع، ولذلك نجد أن القرآن الكريم لم يذكر الإيمان منفصلا عن العمل الصالح أبدا، وكان في كل

مـــوارده في القـــرآن الكريم يذكر العمل قرينا للإيمان؛ لأنه عنوانه ومظهـــره وآيته الدالة عليه. ومن يوم أن تخلى المسلمون عن العمل بمقتضـــى العقيدة الإسلامية، أو تحويلها إلى سلوك واقعي في حياتهم اليومـــية فقد تنازلوا عن أهم الخصوصيات التي تجعل منهم أمة وقوة تصنع التاريخ ولا تقبل أن تعيش على هامشه، وأن يعيشوا تبعًا بعد أن كانوا متبوعين.

إن الأمـــة الإســـلامية في حاجة الآن إلى علم كلام جديد في أهدافه ومناهجه يخاطب الداخل أولا، لكي يصل ما انقطع في مسيرته التاريخـــية، يخاطـــب الداخل، لكي يبين لـــه أهمية العمل بمقتضيات العقـــيدة؛ ليصح لـــه اعتقاده في الله ورسوله، يخاطب الداخل بالحلول الإيمانية لمشكلات عصرنا التي نعانيها ونبحث لها عن حلول هنا وهناك دون أن نعرج على حلولها من قيمنا وبمقتضى عقيدتنا.

نحن في حاجة إلى علم كلام نخاطب به الداخل لنتبين أن الحرية في الإســـلام فريضة تحتاج إلى من يدافع عنها ويبرهن على أنها فريضة دينية وأن العبودية لله لا تتحقق إلا إذا تحرر العبد من عبودية العباد.

نحـــن في حاجة إلى علم كلام يبين للداخل أن العدل أساس الحكم، وأن الخلل في انهيار الحضارة الإسلامية يرجع إلى الخلل الذي



أصاب مبدأ العدل في نظام الحكم.

نحـــن في حاجـــة إلى علم كلام جديد يخاطب الداخل بمبدأ المســـاواة وأنه فريضة دينية كالعدل والحرية وبالثلاثة تستقيم أمور الممالك، وتنتظم الحكومات.

نحن في حاجة إلى علم كلام يخاطب الداخل أولا بأن مبادئ الاجتماع البشري المسلم ينبغي أن تؤسس على قيم الإسلام ومبادئه من الصدق والعفة والأمانة والوفاء، وأن هذه الأسس الأربعة ينبغي أن تكـــون أصولا اجتماعية للكيان البشري، الذي يقوم على المحبة والمـــودة والإخـــلاص والتسامح، وأن هذه الأسس الأربعة ترتبط بصحة الاعتقاد؛ لأنها علامة امتلاء القلب بصحيح الإيمان وآيته عليه ناهـــيك عن شعب الإيمان الأخرى التي تحدث عنها الرسول ﷺ في قوله : [**الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عـــن الطـــريق**] وأن شعب الإيمان كلها هي المظهر الخارجي لسلامة الاعتقاد، وصحيح الإيمان، فإذا ما صح لنا الحوار مع الداخل يكون الحوار مع الخارج أيسر وأسهل، لأن أصول العقيدة الإسلامية في بساطتها لا تحتاج إلى تكلف في الدفاع عنها ويكفي، للإقناع بها تجليـــتها للآخر بمنهج سليم يمثل أحد جناحيه العلم الصحيح، ويمثل الجـــناح الآخر النقل الصحيح ويكون التطبيق العملي للسلوكيات



الإسلامية مظهرا للاقتناع بما يعتقد وقدوة للآخر بالتزام المجتمع بما تمليه عليه عقيدته.

إن الذي نلفت النظر إليه هنا جزء لا يتجزأ من صحيح العقيدة ومقتضياتها؛ فإن الإيمان لم يذكر منفردًا عن العمل مطلقا في القرآن بل اقترن به العمل في كل موارده وآياته.

وسواء كان ارتباط العمل بالإيمان شرط كمال أم شرط صحة فإن هذا الخلاف لا يقلل من أهمية الالتزام بالتطبيق لمقتضيات العقيدة واعتبارها جزءا مكملا لدرس العقيدة في قاعات المحاضرة، والكتاب المدرسي، ونحن لا نريد أن نعرض هنا لمشكلة تأخير العمل عن الإيمان وعلاقة ذلك بالقول بالإرجاء أو عدم القول به، لكننا على يقين أن إهمال هذا الجانب في دروس العقيدة قد أدى إلى نوع من الانفصام في الذهنية الإسلامية على امتداد تاريخها الطويل، انفصام بين الإيمان والعمل، انفصام بين الاعتقاد والتطبيق ومع طول العهد بذلك الانفصام نشأ في المجتمعات الإنسانية نوع من الاكتفاء بالاعتقاد النظري، الذي يكتفي فيه المجتمع باعتقاد القلب ونطق اللسان، وإن أراد طلبًا لكمال إيمانه فلا بأس من مباشرة الطقوس والشعائر الدينية التي هي أركان الإسلام من الصلاة والصيام والزكاة

والحـــج، ووقر في ذهنية المجتمعات الإسلامية أن ذلك هو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده دينا يجمع بين صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، ديـــنا يجمع بين عمارة الأرض بمنهج الله ونشدان الآخرة بعبادة الله، ديـــنا يجعل من عمل الفلاح في حقله والعامل في مصنعه والعامل في محراب علمه والطالب في درسه يجعل ذلك كله عبادة لله وتعبدا له.

لقـــد غاب عن ذهنية المجتمعات الإسلامية أن الإسلام يجعل الدنـــيا مـــزرعة الآخرة، وأن صلاح دنياهم باب ومدخل لصلاح أخراهم، وما لم تصح لهم دنياهم فقد خسروا الدنيا والآخرة معا.

لقد نزلت أول آية في الذكر الحكيم لتأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وتأمر الأمة من بعد بقراءة الكون وتصفح آياته المبثوثة في مفردات عالم الطبيعة من الإنسان والحيوان والنبات، ليجعل منها المفكـــر والعالم، زاده العقلي في مواجهة أي انحراف عقائدي يعتمد عـــلى شـــبهات العقل أو شكوكه. جعل تصفح أفراد الموجودات واستجلاء ما فيها من عناصر الغائية والسببية والحكمة مداخل عقلية للوصـــول إلى إثبات الحقائق الدينية التي خاطبنا بها القرآن الكريم في شكل قضايا مطلقة وحقائق كلية لا تخضع للمشاهد الحسية، ولكنها ثابـــتة بمنطق العقل واستقراء التجربة، وعليك أن تقرأ الآية الكريمة

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ (١). مـــرات ومـــرات وتسأل نفســـك أين مفعول الفعل "اقرأ"، لتعرف أن المقروء هنا هو "الذي خلق" هو الكون بما فيه من آيات أفاقية وآيات نفسية وإذا رجعت ببصرك وبصيرتك إلى الذكر الحكيم كله لتجمع مفردات هذه الآية "الذي خلق" سوف تعلم أن هذه المفردات قد طواها القرآن الكريم مجملة أحيانا ومفصلة أحيانا أخرى في آياته المكية، ليجعل منها الزاد والدليل على إثبات مقاصد القرآن وتحقيق أهدافه الكبرى من إثبات الحقـــائق الغيبـــية التي ربما ضل عنها العقل في متاهات المصطلحات الفنـــية التي ازدحمت بها مصنفات علم الكلام، وقد تجد في كثير من الأحيان أن مقاصد المتكلمين ونتائجهم قد عارضت مقاصد القرآن وأهدافه بسبب اهتمام المتأخرين بتحرير عبارات المتكلمين أكثر من اهتمامهم بتحرير مقاصد القرآن واستجلاء أهدافه.

إن مـــنهج القرآن في الاستدلال على الحقائق الدينية يبدأ من عالم الشهادة من استقراء الآيات الكونية، يبدأ من الواقع الذي يحيط بالإنسان، بل من الإنسان نفسه وليس من الفروض العقلية المجردة التي فرضتها العقلية اليونانية بمصطلحاتها ومفرداتها على تراث المتكلمين.

---

(١) سورة العلق آية [١].

نعـــم قـــد يكـــون العذر واضحًا في اهتمام المتكلمين بهذه المصـــطلحات الفنية واستعمالهم لهذه المفردات، فقد يتحاورون مع نمط من العقليات المشبعة بهذه الثقافة المستوردة وكان مطلوبا منهم أن يظهـــروا للخصم أنهم على مستوى التحدي فكرا وثقافة، ولكن السؤال ما هو عذر الأجيال التالية في إصرارهم على التمسك بنفس المصـــطلحات ونفس المفردات، وقد تغير الزمن واختلفت وتغيرت المشـــكلات، فالقضـــايا ليست هي هي. وليس المخاطب هو هو، فلماذا لا نخاطب المحاور المعاصر بمفرداته ومصطلحاته. كما خاطب الأقدمون محاورهم بمصطلحاته ومفرداته.

إن المحـــاور المعاصر يتسلح بالعلم الحديث ومنهجه التجريبي، ولا شـــك أن العطـــاء العلمي لعصرنا قد كشف لنا عن أسرار من الكون كان يجهلها الأقدمون، وهذا يفرض على عالم الكلام الجديد أن يتســـلح بلغـــة هذا العلم الحديث ويتدرب على منهجه ويحسن توظيف أدواته في الإقناع والبرهنة بادئًا بما بدأ به القرآن، وهو النظر في عالم الشهادة.

يحســـن التعلم منه ويتقن العلم به وهذا يتطلب منه النظر في علـــوم العصر والإفادة منها — الفيزياء وقوانينها – الكيمياء الفلك

والجولوجيا، التشريح – علوم النفس- لأن هذه العلوم في مجموعها قــد كشفت عن أسرار ودقائق تحدث عنها القرآن كثيرا، و لم يكن لـنا العـلم بها لولا الاكتشافات العلمية – وهذا باب واسع يجب الإفادة منه وتوظيفه في مجال الدراسات الكلامية، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن مؤلفات أمثال زغلول النجار ومن على شاكلته يجب أن تحتل مكانتها في الدراسات الكلامية؛ لأنها تخاطب الإنسان المعاصر بلغته التي يفهمها، ومن هنا فأنا ألفت النظر إلى ضرورة الإفادة من فكـر هذا العالم وأمثاله في الدرس الأكاديمي لعلم الكلام في الأزهر ودار العلوم، وهذا الأمر يحتاج إلى مزيد من التفصيلات و البسط في القول، حتى تتضح الفكرة للقارئ قبل أن يبادر بالرفض والاعتراض كما هو شأننا في عدم تقبل كل جديد.

ومـن الأمـور التي يجب الاهتمام بها في الدرس الكلامي ما أشار إليه القرآن من الاعتبار بقوانين السببية على مستويين رئيسين:

**المسـتوى الأول**: السـببية الطبيعية التي تحولت في كتابات الماديين إلى ما أسموه بالحتمية الطبيعية والحتمية التاريخية، إعلانا منهم بـرفض الإيمان بالمسبب الأول، وإيمانا منهم بفاعلية الأسباب ذاتها، إن هـذه القضـية عـلى جانب كبير من الأهمية حيث تحتاج من

المتخصصين في هذا الفن الى تجليتها وتوضيح الفروق بين الإيمان بها مـــن منطلق القرآن والوحي، وأن ذلك قانون الله في كونه وأنه لا يتخلف أبدا إلا لتقع المعجزة على يد النبي، ومنطلقات رفض الماديين للإيمان بالمسبب الأول، وبالتالي رفضهم للإيمان بالغيب.

أمـــا القضية الثانية فهي علم السنن الإلهية وهذا يتطلب الوقوف عـــلى فاعلية السنن للإلهية في المجتمعات الإنسانية وانتظام أحوالها، وأن هـــذه السنن قائمة مقام قانون السببية في عالم الطبيعة، ومتى توفرت لها أســـباب وقوعها، فإنها لا تتخلف أبدا وتلك سنة الله المطردة ولن تجد لسنة الله تبديلا.

لقـــد غاب عن المسلمين أثر هذين القانونين في مسيرة الأمة، بســـبب غياب الاهتمام بهما في قاعات الدرس الأكاديمي في حين قد اهتم بهما الغرب ودرسوهما تحت ما يسمى بالحتمية التاريخية والحتمية الطبيعـــية، فأفادوا من هذين القانونين وأعرض عنهما المسلمون فلم يفسحوا لهما مكانا لا في الدرس الأكاديمي، ولا في البحث الديني مع أنها (علم السنن – قانون السببية) عماد نهضة الأمة – أي أمة.

إن هذيـــن القـــانونين (الغائية – والسببية) ينبغي أن لا يفصل بيـــنهما وبين الدرس العقائدي بسبب من الأسباب، لأن الإيمان بهما

مظهر من مظاهر الاعتقاد بحكمة الخالق في خلقه وعنايته به. كما أن الإيمان بقانون السببية على مستوياتها الاجتماعية والكونية يثير ويوضح للعقـــل البشـــري قانون الله في كونه وسنته الماضية في تاريخ الوجود البشــــري، وكم قص القرآن علينا قصص السابقين؛ لنعلم هذه السنن ونفـــيد منها في نهضتنا وانتظام حياتنا، ومن المهم هنا أن نطرح بعض التصورات المنهجية لتناول علم الكلام بمنهج جديد وقضايا جديدة.

وهـــذا لا يعـــني التقليل أو النيل من علم الكلام وتاريخه، وإنما هي محاولة أن نقتفي أثر السابقين من علمائنا، وأن نقتدي بهم فنعيش مشكلات عصــــرنا كما عاشوا مشكلات عصرهم، ونتناول المشكلات والشبهات المعاصرة لنا التي تتعرض للإسلام وقداسة القرآن الكريم والسنة النبوية كما تعرضوا لها، وأن نفيد من معطيات العلم في عصرنا، كما أفادوا من معطيات عصرهم، وألا نكتفي بترديد أقوالهم وقضاياهم التي عاشوها هم في عصرهم هـــم، و لم يعد لها وجود في عصرنا، فليس ذلك يمثل وفاء لهم بقدر ما يمثل جمودا وتحجرا في مسيرة الأمة التي حذرونا منها ونبهونا إلى خطورتها.

ويتضـــمن هـــذا التصـــور أن نتناول دراسته العقيدة على مستويات متعددة ومتدرجة من الإجمال إلى التفصيل:

**- المستوى الأول: في مراحل التعليم الابتدائي:**

ويمكـــن أن نطرح في هذه المرحلة قضية الإيمان بالله ورسوله

وكتبه والملائكة واليوم الآخر، وأنه سبحانه خالق الكون والإنسان وأمـــره بالعمل الصالح؛ ليكون وسيلة لدخول الجنة بأسلوب بسيط مدعوم بالآيات والأحاديث التي يحفظها الطفل في هذا السن.

**– وفي المرحلة الإعدادية: يتناول بعض قضايا الألوهية**

دلائـــل وجود الله من القرآن الكريم – التوحيد ودلائله من القرآن الكريم. وكذلك تتناول بعض الصفات الإلهية كالعلم والقدرة والإرادة والحكمة.

**– في الثانوي: قضية النبوة:**

الأنبياء – صفاهم– كتبهم ووحدة الدين الإسلامي – الوحي – المعجـــزة – صفة الحكمة — مظاهرها – الغائية — القضاء والقدر – قـــانون السببية وعلاقته بالسنن الإلهية في الكون الطبيعي، وفي انتظام أحـــوال المجـــتمع ولا بـــأس أن تدرس في هذه المرحلة علاقة العلوم الطبيعية (الفيزياء – الكيمياء – الفلك – الجيولوجيا – الطب) بقانون الســـببية من جانب، وأنها وسيلتنا لإعمار الأرض تنفيذا للأمر الإلهي مـــن جانـــب آخـــر ، وأن في ذلك جزء من عقيدتنا. مع بيان أن الأسباب ليست فاعلة بذاتها، وإنما هي خاضعة لمسبب الأسباب لتربط بـــين الـــنظام الكـــوني العام وخالق هذا الكون وأن مظاهر الطبيعة



وظواهرها هي في صميمها تجليات لصفات الخالق وآيات دالة عليها.

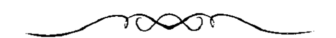
وفي الجامعة نتناول المشكلات المعاصرة التي تتصل بعقيدة المسلم ومقتضيات هذه العقيدة، من:

أ- مسئولية الإنسان عن إعمار الكون ومسئوليته عن حريته.

ب- ودور الراعي في إصلاح الرعية. نظام الحكم والسياسة الإسلامية.

جـ - الرد على الشبهات المثارة ضد الإسلام من أعدائه في الداخل والخارج، ومن المفيد أن نستلهم عطاء العلم الحديث في تناولنا لكل هذه القضايا، حتى يشعر الدارس أنه ليس منفصلا عن الواقع الذي يعيشه وأنه يهتم بما يملك من أدوات ووسائل متاحة في بناء المجتمع من خلال درسه العقيدة التي تتمثل في شعب الإيمان الكثيرة التي حدثنا عنها الرسول ﷺ في قوله الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان، إن هذا الربط بين العقيدة ومقتضياها تخلق لدى المسلم إحساسا قويا وشعورا متدفقا أن كل عمل يقوم به في حياته اليومية هو عبادة لله، وهو من صميم الإيمان ليستقر في ذهنية المجتمع كله أن الإسلام دين ودنيا، وليس عقيدة نظرية قاصرة على الاعتقاد والقلب دون

سند لها من العمل والسلوك كما قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾[1]. فجمعت الآية بين الإيمان والعمل واليوم الآخر لينتظم في ذهن المسلمين أن الإيمان بمستوياته الثلاثة (الاعتقاد القلبي والعمل السلوكي واليوم الآخر) لا ينفصل واحد منها عن الآخر، وهذا ما نود أن نغرسه في قلوب الناشئة منذ الصغر والله من وراء القصد وهو حسبي.



(١) سورة التوبة آية [١٠٥].



# ٤

# علاقة العقل بعالم الغيب

يجـــب أن تعلم أن تصور الإسلام لعلاقة العقل بعالم الشهادة مؤسسة على إدراك كامل بطاقة العقل وإمكاناته والعلم بوظيفته، أن الإنســـان لو فقد حاسة من حواسه الخمس فاته العلم بالعالم الحسي المقابل لها، ولو تخيلنا إنسانا خلق بدون هذه الحواس فإنه لا يعلم شيئا عن هذا العالم على سبيل اليقين.

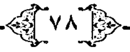
واليقين هنا مطلب أساسي لهذا اللون من المعرفة بعالم الغيب، لأن العقـــل قد يتخيل أمورا وعوالم كثيرة لا نصيب لها من الواقع والخـــيال العلمي لـــه دوره المعرفي في عالم الشهادة، ولا سبيل إلى إنكـــاره، لكن ينبغي أن نعرف هنا أنه لما غابت الحواس عن العقل تخلف عنه العلم اليقيني بعالم المحسوسات، لأن روافد المعرفة الحسية أصبحت مفقودة بالنسبة لـــه فانتقل المستوى المعرفي للشخص من

اليقين إلى التخيل، هذا في عالم الشهادة. أما في عالم الغيب فإن الأمر يختلف تماما عن ذلك، لأن الحواس لا تناله أصلا ولا سبيل لها إليه، وبالتالي فإن روافد العقل التي تزوده بالمعرفة بعالم الغيب مفقودة، والتخيل العقلي هنا ليس مطلوبا، لأن مطلوب المعرفة هنا هو اليقين الجازم الذي لامجال فيه للتخيل وينبغي أن نفرق هنا بين مستويين لمعنى الغيب.

**مستويات الغيب :**

**أ- غيب نسبي :**

هناك ما يسمى بالغيب النسبي وهو ما غاب عن الحواس في عالم الشهادة ويدخل في ذلك الماضي والمستقبل فكلاهما غيب بالنسبة للحواس وكذلك الأمر بالنسبة للحاضر، فهو غيب بالنسبة لمن لم يشاهده، لكنه ليس غيبا لمن عاصره وعاشه، فهناك أمور معاصرة للشخص المعين لكنه لم يشاهدها لغيابه عنها فتكون غيبا بالنسبة له وليست غيبا لمن شاهدها، والشخص الواحد قد يكون الأمر المعين غيبا بالنسبة له في وقت دون آخر، وهكذا شأن الإنسان في عالم الشهادة، فالغيب بالنسبة له أمر نسبي إضافي، قد يكون الأمر غيبا بالنسبة لشخص دون شخص، وقد يكون الأمر غيبا



للشخص الواحد في وقت دون وقت، وعلاقة العقل بهذا النوع من الغيب النسبي متفرعة عن علاقته بعالم الشهادة، فما غاب عنا وجربه غيرنا لزمنا العمل بمقتضاه عند العلم به.

وما تواتر العلم به عن الأمم الماضية من أخبار الأنبياء عنهم هو مما يلزم العلم به، وما يتنبأ به العلماء بناء على المشاهدات العلمية المتكررة هو من هذا القبيل بناء على إطراد السنن الإلهية في الكون سواء تعلقت هذه السنن بالظواهر الطبيعية أو بالمجتمعات البشرية، لأن سنة الله في كونه لا تتخلف إذا وجد المقتضى وارتفع المانع، وهذا هو محل اعتبار الإنسان الذي ندبه القرآن إليه في نهاية كل قصة يقصها عن الأمم الماضية حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝ ﴾[1]. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ﴾[2]. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ﴾. تكررت كثيرًا في سورة الشعراء هذه التعقيبات القرآنية على قصص الأمم الماضية، وهي تلفت نظرنا إلى الغرض من سوق هذه القصة أو تلك، ليقوم العقل بوظيفته فيها فكرا وتأملا واعتبارا، وذلك ما ندبه الشرع له وحثه عليه.

(١) سورة الحشر: آية [٢].
(٢) سورة يوسف: آية [١١١].

**ب – الغيب المطلق :**

وهو ما لا سبيل للعقل إلى العلم به عن طريق الحواس بحال ما، أو هو ما استأثر الله بعلمه وحجبه عن جميع خلقه، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [1]. ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [2].

أ- والغيب قد يطلق في القرآن الكريم ويراد به مكنون العلم الإلهي الذي استأثر الله به عن سائر خلقه. يستوي في ذلك الرسول والنبي والولي. إلا من شاء ربك منهم فيعلمه الله ما شاء من علمه كيف شاء. كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [3]. ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾ [4]. فهذا العلم الإلهي غيب عن الإنسان لا ينال بحس ولا عقل، ولا سبيل إليه إلا بالتعليم الإلهي لمن شاء من عباده عن طريق الوحي أو الرؤيا أو الإلهام، فهو ليس اكتسابا، ولكنه وهب وعطاء، لا مدخل لروافد العقل المعرفية

(١) سورةالأنعام: آية [٥٩].
(٢) سورة النمل: آية [٦٥].
(٣) سورة البقرة: آية [٢٥٥].
(٤) سورة النساء: آية [١١٣].

إليه، ولكن هناك أبواب أخرى لتحصيل هذه المعرفة يدخل منها أهلها ويسعى إليها عشاقها، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴿٢٨٢﴾﴾ (1). ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (2). فهذا العلم لا ينال بكسب عقلي ولا يتخيله عقل ولا يناله وهم، وإنما يتعلم من الله بطريقه المعروف ووسائله المشروعة.

ب - وقد يطلق الغيب في القرآن الكريم ويراد به الذات الإلهية وصفاتها وعلى ذلك كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿٣﴾﴾ (3)، فقالوا : إن الغيب هنا هو الله، نقل ذلك ابن تيمية عن جماعة من الحنابلة منهم القاضي أبو يعلي وابن عقيل وابن الزاغوني (4). وخالفهم في ذلك جماعة آخرون رفضوا إطلاق لفظ الغيب على الله.

ويـــبدو أن الخلاف في هذه المسألة خلاف لفظي. ذلك أن

(١) سورة البقرة: آية [٢٨٢].
(٢) سورة البقرة: آية [١٥١].
(٣) سورة البقرة الآيتان [٢، ٣].
(٤) راجع دقائق التفسير ١/ ٢٠٢، منهج القرآن في تأسيس اليقين، ص ٤١.

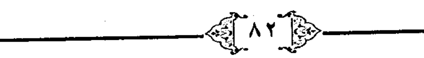
الذين أجازوا إطلاق لفظ الغيب على الله رأوا أن الخلق يغيبون عن الله في معظـــم أحوالهـــم، فلم يذكروه و لم يعبدوه و لم يشهدوه في أفعـــالهم، فهو سبحانه ليس بنفسه غائبا عنهم حفظا ورزقا ولطفا وعونا، وإن كانوا هم غائبين عنه إنابة وتوكلا، وذكرا وعبادة.

فالمعنى المقصود في استعمال لفظ الغيب وإطلاقه على الله، هو انتفاء شهود الخلق له في معظم الأحوال، وهذا صحيح وواقع.

أما الذين رفضوا إطلاق لفظ الغيب على الله فكان قصدهم أنه حاضر مع كل كائن في كونه ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (١). فهو سبحانه مع خلقه علما ورزقا ولطفا وإحياء وإماتة، وهو سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. فهو سبحانه شهيد على العباد رقيب عليهم، ومع كل كائن في كونه بهذا المعنى، فهم الغائبون عنه، وليس هو الغائب عنهم، ولذلك لا يجوز إطلاق لفظ الغيب على الله، وهذا المعنى صحيح أيضا.

---

(١) سورة المجادلة: آية [٧].



وعـــند التحقيق لا نجد خلافا بين أصحاب الرأيين فأصحاب الرأي الأول يجيزون استعمال لفظ الغيب على الله لغياب الخلق عنه، وأصـــحاب الرأي الثاني يرفضون ذلك؛ لأنه سبحانه ليس غائبا عن الخلـــق، وإن كان الخلق غائبين عنه، وكلا الرأيين صحيح على هذا التفسير، فصارت المسألة خلافا لفظيا فقط.

**معرفة الغيب بين منهجين:**

والســـؤال الذي ينبغي أن نطرحه الآن، ما موقف العقل من التعرف على عالم الغيبيات وقضاياه؟ إن العقل مطالب هنا بالإيمان بالغيـــب، سواء استعملنا لفظ الغيب مرادا به معلومات الله التي لا تتناهى والتي حمل إلينا منها أنبياء الله ورسله أو أردنا به الذات الإلهية وصفاتها، واليوم الآخر والبعث وقضايا السمعيات عمومًا؟

لقد سبق القول بأن الذي فقد حواسه يستطيع أن يتخيل في عالم الشهادة ما يشاء لأن عالم الشهادة محسوس، والعالم الذي يريد التعرف عليه هو أيضا محسوس، فالتخيل بالنسبة لـــه ممكن، ولكن تظل معرفته بهذا العالم معرفة تخيلية لا ترقى إلى اليقين، ولا ضير أن يحـــدث ذلك في عالم الشهادة، بل قد يكون ذلك مطلوبا في بعض الأحـــيان أن يتخـــيل الإنسان مستقبله على نحو ما، ولكن الإيمان

بالغيب لا يكفي فيه التخيل ولا الظن، بل لابد فيه من اليقين الجازم الذي لا يخالطه شك، ولا يرقى إليه ريب؟

والإجابة على السؤال السابق تحمل معالم المنهج المطلوب في علاقـــة العقـــل بعالم الغيب، وفي نفس الوقت تضع أمامنا حقيقة الخلاف بيننا وبين منهج المخالفين في الإيمان بقضايا الغيب فلاسفة كانوا أو متكلمين قدامى كانوا أو معاصرين، وهذا يفسر لنا بالتالي ســـبب الحملة التي شنع بها المخالفون على منهج السلف واتهموهم خلالها برفض العقل وأحكامه.

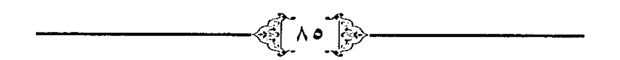
إن قضـــية الإيمـــان بالغيب هي محك الخلاف بين المنهجين: مـــنهج عرف أصحابه للعقل إمكاناته وطاقاته من جانب، وعرفوا أيضـــا مطلب الشرع والوحي من العقل والوظيفة التي ناطه بها من جانب آخر.

أمـــا المنهج الثاني فأطلق أصحابه العنان لعقولهم. فلم يعترفوا بإمكاناتـــه، ولا طاقاته بل قالوا: إن العقل قادر على أن يخضع كل شيء لسلطانه ما غاب عنه وما حضر، ما أدركته الحواس وما غاب عـــنها، حتى ما أخبرت به الأنبياء عن عالم الغيب وقضاياه يجب أن يخضع العلم به وبكيفيته لسلطان العقل.

ولا مانع عندهم أن يتخيل العقل ويخلق لنفسه عالمه الغيبي الخاص به.

ولا مانع أيضا عندهم من رفض هذا العالم الغيبي وإنكاره، ولم يفرقوا في ذلك بين مطلب الشرع من العقل في عالم الشهادة ومطلبه من العقل في عالم الغيب، والخلاف بين الموقفين يكمن في المنهج أولا.

إن أصحاب المنهج الأول وظفوا العقل فيما خلق له في التعرف على عالم الشهادة، وعرفوا له قدره وحدوده في مجال التعرف على عالم الغيب، عرفوا أن العقل في عالم الشهادة مسلط لاكتشاف الكون وقوانينه، وهو في عالم الغيب متعلم يأخذ العلم من مصادره التي غاب عنها أو غابت عنه والتي جاء الخبر عنها، معصوما عن معصوم عن الله سبحانه، عرفوا أن العقل يملك البحث والتعرف على عالم الشهادة، لكنه يفقد جميع الأدوات التي يتعرف بها عالم على الغيب إلا مصدرا واحدا هو الوحي الذي هو إخبار الله عن ذاته بذاته على لسان رسوله، هذا إذا كان للعقل أن يدعي الإيمان بما جاء به الرسول، أما إذا كان العقل رافضا الأخذ عن الرسول ابتداء فهذا له شأن آخر، وليس لنا معه هنا من حديث.



أمـــا أصـــحاب المـــنهج الثاني فلم يفرقوا في ذلك بين عالم الشهادة وعالم الغيب في علاقة العقل بكل منهما، ونسوا في ذلك أن روافـــد المعـــرفة العقلية إلى عالم الشهادة يمتلك العقل أدواتها وهي الحـــواس الخمـــس. أمـــا بالنسبة لعالم الغيب فلا يملك من أدوات التعرف عليه إلا الجهل المطبق، أو التخيل، أو التوهم، أو الظن وكل هذه المستويات المعرفية لا تغني في مجال الإيمان شيئًا.

والســـؤال الآن: أي المنهجين أكثر احتراما للعقل... وأيهما أكثر عقلانية، أن نأخذ الحديث عن الغيب وعن الله مأخذ التصديق به كما جاء به الوحي، أم نتخيل لـــه كيفيات عقلية لسنا مطالبين بها أولا، ولا سبيل لنا إلى العلم بها بالحواس ثانيا ؟

إن القضية هنا تتعلق بتصديق الرسول ﷺ في كل ما أخبر به عن عالم الغيب أو عدم تصديقه.

فـــإذا كان المخاطب بذلك مؤمنا بمحمد ﷺ وبرسالته وأنه صـــادق في الحديث عن الله وبما أنزل الله، فلا شك أن كل ما أخبر بـــه الرسول ﷺ عن قضايا الغيب يكون عنده حق لا مرية فيه، ولا يجوز للعقل أن يتدخل في ذلك بالتخيل أو التوهم لكي يتأول النص الإلهي على ما تخيله بعقله أو توهمه بظنه.



أمـــا إذا لم يكن لـــه من الإيمان بنبوة الرسول ﷺ نصيب، فيكون الحديث معه أولا في تثبيت النبوة وعن دلائل صدق النبي ﷺ فيما أخبر به عن الله. فإذا ما ثبت عنده صدق النبي في كل ما أخبر بـــه، يكـــون ذلك وحده مدخلا صحيحا لتسليم العقل بما أخبر به الرســـول ﷺ عـــن الغيبيات، خاصة إذا عرفنا أن قضايا الغيب لم يطلب الشرع منا أن نبحث فيها لا كما ولا كيفا، ولكن طلب منا الإيمان بها على ما أخبر به الرسول ﷺ فقط، ولذلك فإن السلف قد دونوا معالم المنهج وأصوله - خاصة فيما يتصل بالغيبيات - وكانوا لا ينقلون من الأحاديث إلا ما صح عندهم عن الرسول ﷺ أو إلى أحد صحابته — رضوان الله عليهم - وإذا أرادوا شرح آية أو بيانا لحديث يتعلق بالغيبيات شرحوا ذلك بالآثار المروية عن الرسول ﷺ وليس بما يمكن أن يفهمه العقل منها.

يقول الإمام أحمد: نؤمن بها ونصدق بها ولا نرد منها شيئا إذا كانت بأسانيد صحاح [1].

وقال في موضع آخر: أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر، وكل ما روي عن النبي ﷺ بأسانيد جيدة نؤمن بها ونقرها [2].

(١) شرح أصول أهل السنة، اللالكائي: ١/ ٥٤.
(٢) نفسه.



وقـــال ابن عيينة: هي حق نرويها على ما سمعناها ممن نثق به ونرضـــى بـــه، وقال أبو عبيد: إن هذه الأحاديث يرويها الثقات بعضـــهم عـــن بعض [1]. وحين يروي السلف هذه الآثار النبوية ليؤكدوا بها قضية من القضايا الإيمانية لم يغلقوا الباب أمام العقل أن يعمـــل وينظر ويتدبر الأثر النبوي أو الآية القرآنية، لكن بشرط ألا يقدم نظره على الآية أو الحديث ويجعل ذلك أصلا لـــه يتأول عليه الآيـــة القرآنية لتوافق أصوله من المعقولات، لأن في ذلك أمانا من الـــزلل والضلال، خاصة أننا لم نكلف من الشرع في قضايا الغيب سوى الإيمان بما ورد عنه فقط.

يقول اللالكائي: "فمن أخذ في هذه المحجة وداوم بهذه الحجج عـــلى مـــناهج الشريعة أمن في دينه التبعة في العاجلة والمسائلة في الآجلـــة... ومن ابتغى في غيرها مما يهواه أو يروم سواها مما تعداها أخطـــأ في اختيار بغيته وأغواه، وسلكه سبل الضلالة وأرداه، فيما يعـــترض على كتاب الله وسنة رسول الله بضرب الأمثال ودفعهما بـــأنواع المحـــال، والحيدة عنهما بالقيل والقال... مما لم يعرفه أهل التأويل واللسان ولا خطر على قلب عاقل بما يقتضيه من برهان ولا

(١) نفسه.



انشرح له صدره موحد عن فكر أو عيان"[1].

إن الاعتصام بالنص الصحيح في قضايا الغيب كان منهجا أقوم في منطق العقل نفسه. ذلك أن العقل مطالب بالإيمان به وفي نفس الوقت ليس مؤهلا للبحث فيه كما هو شأنه في عالم الشهادة. ولم يطلب منه الشرع البحث فيه، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ولا يكلفها إلا ما آتاها، وسبيله الوحيد إلى التعرف على الغيب هو خبر المعصوم عن الله، الذي قال لصحابته: « **تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك** »[2].. وفي القرآن الكريم : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [3]، وعن ابن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا.

وكان أهل الحديث هم أحرص الناس على ذلك لاختصاصهم برسول الله ﷺ وطول ملازمتهم له، وحفظهم العلم النبوي عنه، وشدة تمسكهم بما سمعوه ونقلوه عنه إلى الناس من بعدهم، وذلك بدون واسطة بينهم وبينه، فحفظوا عنه ووعوا واعتقدوا جميع ما سمعوا.

(١) السنة ص: ١.

(٢) حديث العرباض بن سارية مشهور رواه ابن ماجه في المقدمة ص ٤٣ ، ورواه أحمد ٤ / ١٢٦: والحاكم وابن أبي عاصم في السنة ٤٨، ٤٩.

(٣) سورة الحشر: آية [ ٧].



يقول الإمام اللالكائي في كتابه السنة عن هذا المنهج: فهذا دين أخذ أوله عن رسول الله ﷺ مشافهة لم يشبه لسان ولا شبهه، ثم نقلــه العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة والصافة عن الصافة والجماعة عن الجماعة، أخذ كف بكف، وتمســك خلف بسلف، الحروف يتلو بعضها بعضا، ويتسق آخرها عــلى أولاها وصفا ونظما، فهؤلاء الذين تمهدت بنقلهم الشريعة، وحفظت بهم أصول السنة، فوجبت لهم بذلك المنة على جميع الأمة، فهم حملة علمه، ونقلة دينه، وسفرته بينه وبين أمته، وأمناؤه في تبليغ الوحي عنه [(١)].

ومن أهم ما عني به أصحاب هذا المنهج حرصهم على صفائه ونقائه، فلم يتأثروا فيه بمسلك الخصوم معهم، ولا بتشنيع المخالفين علــيهم، فكــانوا يكرهون مناظرة أهل البدع، ويتناهون عن نقل شــبهاتهم أو عرضــها على المسلمين مخافة الفتنة بها. يقول سفيان الثوري: من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه ولا يلقها في قلوبهم [(٢)].

وقــال الإمــام ابــن بطة: لست ترد عليهم بشيء أشد من

(١) شرح السنة، اللالكائي: ٢٣.

(٢) شرح السنة للبغوي ١/ ٢٢٧ نقلا عن السنة للالكائي ٥٦٠.



السكوت عنهم [1].

وكان الإمام أحمد بن حنبل يعلم تلامذته ذلك المنهج، فلقد كتب إليه أحد تلامذته يستأذنه في أن يضع كتابا يرد فيه على أهل البدع، وأن يحضر مع أهل الكلام فيناظرهم ويحتج عليهم، فكتب إليه الإمام أحمد، يقول: الذي كنا نسمع أدركنا عليه من أدركنا من أهل العلم أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمر في التسليم والانتهاء إلى ما كان في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إلا في الجلوس مع أهل البدع والزيغ، لترد عليهم فإنهم يلبسون عليك وهم لا يرجعون، فالسلامة أن تترك مجالستهم والخوض معهم في بدعتهم"[2].

ولقد شغب أصحاب المنهج المخالف من المعتزلة وغيرهم على أهل الحديث في منهجهم وشنعوا عليهم، وكانوا ينتصرون عليهم بالسياسة أحيانا، كما حدث في زمن محنة الإمام أحمد. ونالوا منهم كثيرا فنسبوهم أحيانا إلى الحشو وأحيانا إلى الجهل، ومحاربة العقل، ولا يخفى الأمر على ذي فطنة، إذا انتصرت السياسة لمذهب أو

(١) الإبانة ٢/ ٣٦٥- ٣٦٦ نقلا عن السنة ص ٥٦.

(٢) نفسه ص ٥٧.

رأي، فالويل للمخالفين ولو كانوا على الحق المبين.

ولقــد صــور كــثير من علماء المذهب، الموقف الفكري للمخالفين لهم، وأنه لا سند له من علم ديني ولا برهان عقلي، وأن المــنهج الــذي سلكوه في الغيبيات منهج أخرق، فساده أكثر من صلاحه ، فقال: ... فهو راكض ليله ونهاره في الرد على كتاب الله وســنة رسوله ﷺ والطعن عليهما، أو مخاصما بالتأويلات البعيدة فــيهما، أو مســلطا رأيه على ما يوافق مذهبه بالشبهات المخترعة الركــيكة حتى يتفق الكتاب والسنة على مذهبه وهيهات أن يتفق فهذه حاله إذا نشط للمحاورة في الكتاب والسنة.

فأمــا إذا رجــع إلى أصله وما بني بدعته عليه اعترض عليها بالجحود والإنكار، وضرب بعضها ببعض من غير استبصار واستقبل أصلهما ببهت الجدل والنظر من غير افتكار، فما اغبرت أقدامهم في طلب سنة، أو عرفوا من شرائع الإسلام مسألة، فيعد رأي أصحابه حكمــة وعــلما وحججا وبراهين، ويعد كتاب الله وسنة رسوله حشــوا وتقلــيدًا، ويعــد حملتها جهالا وبلهاء يرمون أهل الحق بالألقــاب القبيحة... ومقالتهم هذه لا تظهر إلا بسلطان قاهر أو بشــيطان معاند فاجر يصل الناس خفيا ببدعته، أو يقهر ذاك بسيفه

وسطوته، أو يستميل قلبه بماله ليضل عن سبيل الله حمية لبدعته وذبا عـــن ضـــلالته، لقد زعموا أهم أكبر من السابقين في المحصول وفي حقائق المعقول وأهدى إلى التحقيق، وأحسن نظرا منهم في التدقيق، وأن المتقدمين تفادوا من النظر لعجزهم. ورغبوا عن مكالمتهم لقلة فهمهـــم، لقد ابتدعوا من الأدلة ما هو خلاف الكتاب السنة رغبة للغلبة وقهر المخالفين، ثم اتخذوها دينا واعتقادًا بعد ما كانت دلائل الخصـــومات والمعارضات، وضللوا من لا يعتقد ذلك من المسلمين. ومـــن خالفهم وسموه بالجهل والغباوة[1]. وهكذا يصور إمام السنة موقف المخالفين منهم وتشنيعهم عليهم.

ولقـــد تـــناهى السلف فيما بينهم عن منازلة خصومهم في محاورة أو مناظرة أو ما شابه ذلك خوفا من استعمال الألفاظ المجملة الـــتي يطلقونها في النفي والإثبات، والتي يلبسون بها الحق بالباطل. ليخدعوا بها جهال الناس.

ولقـــد أشار الإمام أحمد إلى ذلك الخطأ المنهجي عندهم في أول كـــتابه "الرد على الجهمية" فقال: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى

(١) من كتاب السنة بتصرف، ص ١٨، المقدمة.

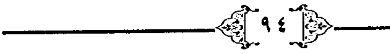
ويصـــبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى... إلى أن قال: ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذي عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يقولون عـــلى الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكـــلام، يخدعـــون جهال الناس بما يشبهون، فنعوذ بالله من فتن المضلين [1]. وعند تأمل هذين النصين نجد أن كلا منهما يحمل نفس الأخطـــاء المنهجـــية التي يسلكها الخصم في موقفه من السلف، إن القضـــية عندهم ليست انتصارا للعقل وأحكامه بقدر ما هي رفعة لمنهج القرآن والاعتصام به.

**ومن أبرز هذه الأخطاء المنهجية عندهم:**

استعمال الألفاظ المجملة التي قد يلتبس فيها الحق بالباطل، فإن في نفيها نفيا لبعض الحق، وفي إثباتها إثباتا لبعض الباطل.

يـــتركون المحكـــم ويتكلمون بالمتشابه من الكلام، ليخدعوا جهـــال الـــناس بأنهم أصحاب النظر العقلي بما يشبهون عليهم من الكلام.

(١) درء تعارض العقل والنقل: ١٥٢.



لجوؤهم إلى التأويل لم يكن طلبا للحق في ذاته، وإنما كان انتصارا للمذهب وإبطالا لرأي الخصم.

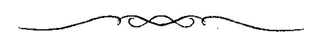
التنفير من رأي المخالف باستعمال الألقاب المذمومة والتشنيع عليهم بالأكاذيب، كالحشوية والعجز والجهل، ومحاربة العقل ورفض أحكامه.

الاستعانة على المخالف بالسلطان وسيفه بدلا من الرجوع إلى الحق وأهله.

وهذه الأخطاء السابقة التي أشرنا إليها ليست من باب الرد على الباطل بباطل مثله، وإنما هي تبيان لما في الموقف الآخر من أخطاء في المنهج الذي ينسبه أصحابه إلى العقل، وينسبون إلى منهج غيرهم محاربة العقل.

ويتبين من هذه الأخطاء التي أشرنا إليها مدى الخلاف بين المنهجين في قضايا الغيب، منهج التعامل مع عالم الشهادة ودور العقل في ذلك المنهج، وكيفية التعامل مع عالم الغيب ودور العقل في ذلك، موقف العقل الذي اعتصم بالنص من منطق العقل نفسه، ورأى أنه أكثر أمانا وإيمانا فيما لا سبيل للعقل إليه بذاته، وموقف العقل المخالف الذي رأى أن التخيل العقلي، أو التوهم أو الظنون

التي يصلون إليها بالتأويلات العقلية كافية في تحقيق معنى الإيمان بالغيب وسوف تتضح القضية أكثر في حديثنا عن علاقة العقل بالوحي والشرع.





# مدارك العقول

## بين عالم الغيب وعالم الشهادة

يتصل الحديث عن هذه القضية بنظرية المعرفة من جهات مختلفة.

١- فهو يتصل بها من حيث وسائلها.

٢- ومن حيث موضوعها، ومن حيث غايتها.

٣- من حيث هي كهدف مقصود لذاته وليس من هدفنا الحديث عن نظرية المعرفة في هذه الدراسة، فإن ذلك له مجالات أخرى، ولكن الذي نقصده بالدرجة الأولى هو تحديد علاقة العقل بموضوع المعرفة وغايتها من جانب: وعلاقته بوسائلها من جانب آخر.

ولقد آثرنا استعمال هذا المصطلح "مدارك العقول" لما فيه من دلالة على تمكن العقل من موضوع المعرفة وسيطرته عليها، واحتوائه



لهـــا، ممـــا لا نجده في غيره من المصطلحات المعرفية الأخرى، وهذا المصـــطلح يطرح علينا مباشرة الحديث عن موضوع المعرفة التي هي "مدارك العقول".

فقد يكون موضوع المعرفة هو عالم الشهادة وما يشتمل عليه من ظواهر ومظاهر.

وقـــد يكون موضوع المعرفة لا ينتمي إلى هذا العالم الحسي، ولا يمـــت إلـــيه بسبب كعالم الغيب، ونريد هنا أن نتعرف على مـــدارك العقـــل لهذين العالمين، عالم الشهادة، وعالم الغيب، ودور العقل في التعرف على كل منهما.

أولا: وظيفة العقل في عالم الشهادة:

عالم الشهادة هو المقابل الشرعي للعالم الحسي والمحسوسات لـــدى علماء المناهج أو المعرفة الحسية، وينطلق موقفنا هنا في تحديد علاقـــة العقل بعالم الشهادة من توجيهات القرآن الكريم، التي تجعل النظر العقلي والتأمل في آيات الله أفقية كانت أو نفسية مطلبا شرعيا وواجبا دينيا على سبيل الفرض الكفائي أحيانا، وقد يرقى في بعض الأحيان إلى مستوى الفرض العيني على شخص بذاته أو على جماعة معينـــين بذواتهم، حيث يلزمهم ولي الأمر ويجبرهم على أداء هذه



الوظيفة التي تعينت عليهم، والتي لا ينهض بها سواهم، حتى تستقيم أحوال الأمة بها، ومن حق ولي الأمر أن يعاقبهم - أفرادا كانوا أو جماعة- إذا لم ينهضوا بهذه المسئولية التي أصبحت بمثابة الدين الواجب الأداء كما إذا تعين على جماعة ممارسة مهنة الطب أو صناعة الأسلحة للجيوش، أو فن الهندسة أو القيام بخدمات أخرى لا ينهض بها سواهم.

والقرآن الكريم يحث العقل ويدفعه دفعا إلى التعرف على هذا الكون واكتشاف قوانينه، ومعرفة خصائصه والتعرف على العلاقات المتبادلة بين أنواعه وأجزائه للوقوف على خصائص العلاقات السببية الكامنة فيه، لأن ذلك كله يرتبط برسالة الإنسان في هذا الكون والهدف من وجوده، واستخلافه في الأرض وتنفيذه للأمر القرآني باستعمارها.

وهذه المهام لا تتم للمسلم إلا باكتشاف قوانين الأشياء ومعرفة العلاقات السببية فيها، ليستطيع أن يحقق فيها المعنى الإلهي المقصود من تسخير هذا العالم من سمائه إلى أرضه لصالح الإنسان.

ولقد شاع العلم بهذه الآيات القرآنية التي تأمر العقل بالنظر والتأمل، وأصبحت معروفة للعامة والخاصة، ولذلك سوف أعفى

نفسه من سردها في هذا المختصر ، ولكن الذي يلفت النظر وأنبه إليه أن منهج القرآن في سوق هذه الآيات كان يأخذ بمبدأ التدرج والترقي من مستوى معرفي إلى مستوى آخر أرقى وأدق، ويفتح أمام العقل مجالات للنظر وآفاقاً أرحب للتأمل كان يجهلها العقل من قبل، لتكون مسرحا لنظره العقلي وعمله الفكري. فالكون كله قد أعده الخالق سبحانه وجعله مهيأ للنظر العقلي؛ ليجعل منه حبلا ممدودا وسببيا موصولا بين الإنسان العارف وموضوع المعرفة من جهة وغاية هذه المعرفة وهدفها من جهة أخرى، ولذلك كانت آيات القرآن المتصلة بهذا الموضوع تختم غالبا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

١- نجد آيات القرآن في هذا الصدد تأمر الإنسان بالنظر إلى البيئة التي يعيش فيها الإنسان وما فيها من أصناف الموجودات من حيث كيفية الصنعة، دقة وإتقانا، فنقول له: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [1].

(١) سورة الغاشية: الآيات [١٧- ٢٠].



والسؤال في هذه الآيات يدور حول كيفية الصنعة وليس عن وجودها ، والفارق كبير بين مضمون السؤالين؛ فالسؤال عن كيفية الصنعة لا يملك الإجابة عنها إلا صانعها أو من كان في مستواه من العلم بكيفيتها والغاية والقصد منها... ولذلك فإن النظر العقلي هنا يـــدرك من مضمون السؤال حسب استطاعته فقط فهو يدرك منها ولا يدركهـــا، لتـــبقى القضية كلها في نطاق الإعجاز من جانب ومطلبا شرعيا للعقل من جانب آخر.

٢- وأحيانا يطلب القرآن من العقل ألا يكتفي بمجرد النظر إلى هذا الكون، بل لابد أن يخترق ظواهره ليكتشف ماذا في داخله، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (١)، ومعلوم أن الأمر بالنظر في الشيء أعلى درجة من مجرد النظر إلى الشيء، فليصعد الإنسان إلى القمر – إن شاء – أو إلى ما شاء من الكواكب، وليهبط – إن شاء – في باطن الأرض مكتشفا وباحثا، فإن ذلك كله مطلب شرعي في منهج القرآن، لأن رسالة الإنسان في الكون واستعمار الأرض لا تتم إلا بذلك، وحين يخاطبنا القرآن بقوله

(١) سورة يونس: آية [١٠١].

تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [1]، فإنه يطلب منا بصيغة الأمر أن نعمل على عمارة الأرض بكل ما نستطيع، والتقصير في تنفيذ هذا الأمر معصية جماعية تجني الأمة ثمرها فقرا ومرضا ومذلة وهوانا وتخلفا وتبعية لأمم الأرض.

## العقل والكون:

وحين يذكرنا القرآن بأحوال الأمم السابقة وكيف جرت عليهم السنن الإلهية في الكون من ازدهار للحضارات أو انهيار لها، فإن ذلك كان على سبيل التعليم والإفادة من الدرس والعبرة من التاريخ، ليكون تاريخ الإنسان نفسه مجالا رحبا لعمل العقل، ليتعرف منه على أساس ازدهار الحضارات وانهيارها، ليعي العبرة من قص القرآن لهذه السنن وعلاقتها بالأفراد والجماعات، فالكون كله مسرح للعقل وميدان لعمله، وتاريخ الإنسان كله مسرح لنظر العقل، والعقل مهيأ للسيطرة الكلية على الكون واحتواء تاريخه، فكرا وتأملا، مقدمات ونتائج، علاقات بين الأشياء، أسباب ومسببات، تسخيرا وتوظيفا، وتلك مهمة العقل ووظيفته في عالم الشهادة، وذلك واجبه الشرعي الذي ندبه القرآن له وحثه عليه وأمره به.

---

(١) سورة هود: آية [٦١].

وليســـت من قبيل المصادفة أن يلفت القرآن نظر المسلم إلى بعــض آيات بعينها من آيات الله في كونه جعلها اسما وعلما على بعــض سور القرآن، وكأنه يقول للعقل في هذه اللفتة، تلك قضية تحــتاج إلى نظر وتدبر، وقد يقرأ المسلم هذه الآيات دون أن يعيرها حقهــا من النظر والتدبر مع أنها تحتاج من القارئ أن يقف أمامها طويــلا وطويلا، لأنها جاءت بصورة شاملة لكل أنواع الموجودات غالبا.

١- فهناك آيات تنتمي إلى عالم الحشرات جاءت علما على بعض السـور للقـرآن، مـثل سورة النحل، سورة النمل، سورة العنكبوت.

٢- وهـناك آيات تنتمي إلى عالم الأفلاك والطبيعة كانت علما عـلى بعض سور القرآن، مثل سورة الشمس، سورة القمر، سورة الرعد.

٣- وهـناك آيـات تنـتمي إلى عالم النبات، مثل سورة التين والزيتون.

٤- وآيـات تنـتمي إلى عالم الحيوان، مثل سورة البقرة، سورة الأنعام.



٥- آيات تنتمي إلى عالم الزمان، وبعض أوقاته مثل سورة الليل، سورة الضحى، سورة العصر، سورة الفجر.

٦- آيات تعبر عن الكون كله، سورة الملك.

٧- آيـــات تعـــبر عـــن أصل الإنسان في بعض مراحله، سورة الإنسان.

## القسم في القرآن الكريم :

ويقسم القرآن ببعض الآيات تنبيها للعقل إلى أهميتها في حياة الإنســـان وإلى ضرورة الاهتمام لها فكرا وتأملا وتوظيفا: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [(١)].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩﴾[(٢)].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾[(٣)].

---

(١) سورة الواقعة الآيتان [٧٥، ٧٦].

(٢) سورة الحاقة الآيتان [٣٨، ٣٩].

(٣) سورة التكوير: الآيتان [١٧، ١٨].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾ (1).

هذه بعض آيات الله في كونه التي يستحث العقل ويدفعه دفعا للنظر والتأمل فيها، وهذا الكون هو عالم العقل ومسرحه الذي يملك العقل أدوات التعامل معه، ويستطيع السيطرة إن شاء على قدر استطاعته، يجعل القرآن عمل العقل فيه وتعامله معه مطلبا شرعيا وواجبا دينيا وعبادة يتقرب بها إلى الله يعاقب المجتمع كله على التفريط فيه أو الإعراض عنه.

ومن الأمور اللافتة للانتباه أن الآيات السابقة تتسع دائرتها لتشمل الكون كله من عالم الأفلاك إلى عالم النبات وعالم الجماد، فليس في الكون ما هو غريب على العقل، وليس فيه ما هو فوق مستوى الإدراك العقلي، أو يعز على العقل مناله، فالكون كله موضوع بحثه وموضوع كده وكبده، وحين يعمل العقل ويستفرغ وسعه بحثا وفكرا وتأملا يكون حينذاك في عبادة شرعية لله، وكلما ازداد عمله وعلمه ازداد لله خشية ومن الله قربا ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾.

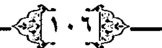
(1) سورة الانشقاق: الآيات [16- 18].

وينـبغي أن يـبدأ توظـيف العقل في عالم الشهادة من هذا المـنطلق القرآني، ومن خلال تحديد القرآن لوظيفته في هذا الكون: لقـد ندبه للنهوض بها وأتتمنه عليها، وطلب منه إعمار الكون تبعا لهـذا المـنهج باكتشاف القوانين، والتعرف على العلاقات السببية الكامـنة في الأشـياء، ليسخر الكون كله لخدمة الإنسان وتحقيق مصالحه، وليحقق في ذلك معنى الاستخلاف عن الله في الأرض.

ومـن جانب آخر فإن النكوص عن أداء هذه الوظيفة إ هدار لطاقة العقل وضياع لرسالة الإنسان، وجريمة في حق الدين والدنيا معا، وعلاقـة العقل بعالم الشهادة على هذا النحو السابق تقوم على أسس معيـنة يعتـبرها القرآن أركانا لتكليف العقل بهذه الوظيفة، بحيث إذا تخلف ركن منها سقط عن الإنسان ما يقابله من التكاليف الشرعية.

١- إن العقـل يملك القدرة المؤهلة لـه للتعرف على هذا العالم واكتشاف قوانينه وتحديد العلاقات السببية بين أنواعه، ليجعل منه مملكته التي استخلفه الله عليها.

٢- إن الله تعالى قد زود الإنسان بالحواس الخمس، وجعلها جنودًا للعقل بها يتعرف بها على كل محسوس، وفي نفس الوقت هي مناط مسئولية الإنسان أمام الله يوم القيامة، إذا أساء استعمالها



أو أهمل توظيفها ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ (١).

والتكاليف الشرعية منوطة بهذه الأدوات المعرفية وجودا وعدما، فإذا تخلف واحد منها سقط عن الإنسان ما يقابلها من التكاليف الشرعية، ولذلك كان من القواعد الأصولية، إذا أخذ ما وهب سقط ما وجب. وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴿٧﴾﴾ (٢).

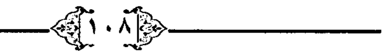
٣- هذه الحواس هي روافد المعرفة العقلية عن عالم الشهادة، هي جواسيس العقل وعيونه حسب تعبير الغزالي، وبدون هذه الجواسيس لا يستطيع العقل أن يعلم شيئا يقينيا عن عالم الشهادة، فمن فقد حاسة البصر فاته العلم بعالم المرئيات، ومن فقد حاسة السمع فاته العلم بعالم المسموعات وهكذا شأن بقية الحواس.

فكل حاسة مسلطة على عالم معين تتعرف عليه وتنقل إلى العقل إحساسها بهذا العالم المعين.

(١) سورة الإسراء: آية [٣٦].
(٢) سورة الطلاق: آية [٧].

حـــاول – أيهـــا القارئ – أن تتخيل معي إنسانا خلقه الله بدون هذه الحواس الخمس، ماذا يمكن أن يتكون لديه من معلومات يقينـــية عن هذا العالم الحسي؟ ولذلك كان من الأصول المعرفية أن مـــن فقد حسا فقد علما، فمن العبث أن تسأل الأعمى عن الفرق بـــين الأســـود والأبـــيض، أو تسأل الأصم عن الفرق بين صوت الإنسان وصوت الحمار، وهذا المعنى يصدق على من يملك الحواس، لكـــنها تعطلـــت عـــن العمل لوجود الآفة بها أو وجود مانع قوي كالمـــريض بالصفراء مثلا فإنه قد يحس طعم العسل مرا والذي على بصـــره غشاوة قد يرى الأشياء على غير ما هي عليه، فيرى الصغير كبيرا والكبير صغيرا.

٤- أن مـــا غاب عن حواس الإنسان وتجربته الشخصية، في هذا العـــالم فقد غاب عن العقل العلم اليقيني به عن هذا الطريق، طـــريق الـــتجربة الحسية، لكن قد يعلمه عن طريق آخر غير تجربـــته هو، كأن يعلمه عن طريق خبر المعصوم ﷺ مثلا أو عـــن طـــريق ما تواتر العلم به عن الأمم السابقة ... إلى غير ذلك من طرق العلم الأخرى، فكل ما ثبت صدقه عن طريق تجريـــب الغير لـــه وتم العلم به لزم الأخذ به والعمل بمقتضاه



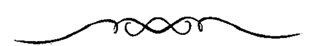
ممن لم يجرب بنفسه، وهذا في عالم الشهادة معلوم بالاضطرار من كل أحد.

فالمريض لا يسوغ له أن يمتنع عن تناول الدواء الذي وصفه الطبيب بدعوى أنه لم يجربه قبل ذلك بنفسه، والأعمى لا يسوغ له أن ينكر ضوء الشمس بحجة أنه لم يره بنفسه، وهكذا يتواتر العلم لدى العامة والخاصة بكل ما ثبت صدقه مما جربه غيرنا، ولم تدركه حواسنا، وأصبح العلم به، والعمل بمقتضاه لازما لنا لزوم ما جربناه بأنفسنا وأدركناه بحواسنا، ولا فرق في ذلك بين ما جربه الشخص بحواسه وما جربه غيره، فالأخذ بكل منهما ضرورة عقلية كمصدر من مصادر المعرفة.

ويدخل تحت ما جربه غيرنا العلم بأخبار الأمم الماضية، والأخبار المتعلقة بالعصر الذي نعيشه مما لم يقع منه تحت حواسنا، وما جربه غيرنا منها، كالعلم بسور الصين العظيم، وأن الكعبة في مكة وأن الهرم الأكبر بالجيزة في مصر وكالعلم بنبوة الأنبياء السابقين.

ومما ينبغي أن يعلم أن هناك أمورا كثيرة يقتصر العلم بها على مجرد الإخبار عنها فقط لأن الحواس لا تنالها بسبب غيابها عن

الحواس، وليس لنا طريق إلى العلم بها إلا الخبر المتواتر، وهذا يشمل علمـــنا بتاريخ الإنسانية كله فإنه لم ينقل إلينا إلا عن هذا الطريق، ومـــن العبـــث إنكار تاريخ الأمم الماضية بدعوى عدم التجريب أو عدم السماع له.





٥

# الدين والدولة

## بين التاريخ والواقع

ظهـــر في أدبيات القرن العشرين مجموعة من الثنائيات على ألســـنة المثقفين وفي كتاباتهم للدلالة على سياق ثقافي تاريخي معين مـــثل ثنائيات، الدين والدولة، العلم والدين، الدين والسياسة.. الخ، وارتـــبط ظهور هذه الثنائيات في أذهان الكثيرين بالنهضة الأوربية، وطبـــيعة الصـــراع الذي حدث في العصور الوسطى بين الكنيسة والعلماء، إذ من المعروف تاريخيا أن عصر النهضة بأوربا لم يبدأ إلا بعـــد ثورة العلماء على رجال الكنيسة والدعوى إلى التخلص من سطوة رجالها على عقول الناس بمجموعة من الأوهام والخرافات التي دعـــت الناس إلى الإيمان بها على أنها دين وعقيدة، ووحي سماوي، فقـــد كـــانوا يؤمـــنون بأن الأرض هي مركز الكون وأنها ليست

بكروية، وأن الأرض تدور حول الشمس.. الخ، وكانوا يعتقدون أن ذلك دين وعقيدة ينبغي الإيمان به على أنه وحي من السماء.

وحين اطلع علماء أوربا على العلم الوافد إليهم من الحضارة الإسلامية في أسبانيا وجزيرة صقلية وجربوه بآلاتهم المعملية وجدوه يتـــناقض تمامـــا مع الدين الذي يبشر به رجال الكنيسة، ولما أثبتت التجارب صدق هذا العلم الجديد، وأن ما يدعو إليه رجال الكنيسة قد بين العلم أنه جهل وخرافة بدأوا يرفضون آراء ومعتقدات رجال الكنيسة وبينوا للناس أنها خرافات وأوهام ليس لها سند من العلم ولا مـــن العقل، وهنا بدأت قصة الصراع بين العلماء ورجال الكنيسة، وأعلنـــت الكنيسة حربا شعواء على العلم الجديد الذي أسموه بالعلم الشـــيطاني واســـتعانوا على العلماء بالسلطة السياسية (الإمبراطور) الـــذي كـــان يصدر قرار تعيينه وعزله من الكنيسة، ولا يخفي على أحد من المشتغلين بدراسة التاريخ والحضارة قصة هذا الصراع المرير بـــين العلماء وسلطة رجال الكنيسة، وكيف اصطلى العلماء بنيران هـــذه السلطة من قتل وإحراق ونفي وتعذيب، وفي النهاية لم يصح إلا الصـــحيح. قد تمخضت هذه القضية عن انتصار العلم والعلماء، وبدأت أوربا نهضتها الحديثة تحت مظلة العلم والمنهج العلمي



وانتصـــرت السياسة للعلماء وبعد أن كان يصدر قرار تعيين الإمبراطور من الكنيسة أصبح الإمبراطور هو الذي يصدر عنه قرار تعيين رجال الكنيسة وعزلهم وصاروا موظفين يتقاضون رواتبهم من الدولة، وكانت فرنسا من أوائل الدول التي أعلنت أنها دولة علمانية تقـــوم أنظمـــتها السياسية والاجتماعية على "العلمانية المطلقة" التي تفصل بين الدين والدولة، وتعمل على إقصاء كل ما هو كنسي عن شـــئون الحـــياة في فرنسا، واتخذت من كتاب "العقد الاجتماعي" دســـتورا لهـــا في الـــنظام السياسي والاجتماعي، ثم انتشرت هذه الثنائيات في الأدبيات الفرنسية الدين والعلم، الدين والسياسة، الدين والدولة" وكان مصطلح العلمانية هو التجسيد العملي لقضية إقصاء الديـــن عـــن شئون الدولة، وتزامن ذلك مع ظهور بعض المذاهب الاجتماعـــية التي تناولت قضية الدين على أنه مرحلة تاريخية انقضى عصرها بظهور العلم الذي احتل مكانة الدين عندهم واستطاع أن يفسر لهم ظواهر الكون وغوامضه وانتشرت آراء أوجست كونت، "دور كـــايم" و "ليفيي بريل" التي جسدت هذه القضية في ضرورة إقصـــاء الديـــن عن شئون الحياة سياسيا واقتصاديا باعتباره مرحلة تاريخـــية انقضى وقتها بظهور العلم وساعد ذلك على انتشار هذه الثنائيات التناقضية في أوربا.



انتقلت هذه المصطلحات ومعها مصطلح العلمانية.. إلى العالم الإســـلامي، وهي محملة بفكرة التناقض بين "الدين والدولة" وبين الديـــن والعلم، والدين والسياسة... الخ. بمعنى أن سياسة الدولة لا ترتبط بالدين وأن العلم يتناقض مع الدين وأن السياسة لا دين لها. وان أول مـــن طبقها عمليا في السياسة هو مصطفى كمال أتاتورك حـــين تولى السلطة في تركيا بعد الانقلاب الذي قاده ضد السلطان عبد الحميد، فألغى اللغة العربية، والتعليم الديني من مناهج الدراسة، وألغـــى الكتاتيب واستبدل الزى الأوربي بالزى التركي البديل عن الانـــتماء الإسلامي، ومن المعروف أن مصطفى كمال أتاتورك من أصل يهودي ينتمي إلى يهود الدونمة، تربى في أندية روتاري أوربا، وكـــان هـــو رأس الحـــربة التي أصابت الخلافة العثمانية في المقتل وانتشـــرت في عهـــده هذه الثنائيات في تركيا وبلاد الشام ومصر وشمـــال إفريقـــيا وأخذ بعض المثقفين العرب يربط بين نهضة أوربا وظهـــور هذه الثنائيات ومصطلح العلمانية الذي يجسد فصل الدين عن شئون الدولة.

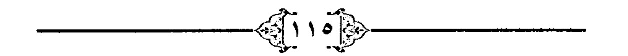
كما حاول بعضهم أن يربط بين تقدم أوربا ونهضتها العلمية وتخلصـــها من الدين المسيحي بدعوى أن ارتباطها بالدين كان سببًا في تخلفهـــا، وشـــيوع الخـــرافات والجهل بين أبنائها طيلة العصور

الوسطى، وأنها لم تنهض إلا بعد أن أعلنت رفضها للدين واعتناقها العلم والعقلانية بديلا عن الدين وأخذ دعاة العلمانية في بلاد الشام ومصـــر ينادون بضرورة التخلص من هذه الثنائية بإقصاء الدين عن مناهج الدراسة والسياسة وشئون الاقتصاد حتى تنهض بلادنا، كما نهضـــت أوربا فبشر بعضهم صراحة برفض الإيمان بالغيب واعتبره خرافة. وبشر بعضهم بفصل الدين عن السياسة واعتبار الدين مسألة شخصـــية فردية يمكن ممارسة شعائرها في داخل الأسرة ولا علاقة للدين بشئون الحكم والسياسة أو الاقتصاد...

وساعد على شيوع هذا اللون من التفكير ما كان عليه العالم العـــربي مـــن تخلف علمي وسياسي واقتصادي إذا ما قورن بالعالم الغـــربي، وكانـــت هذه الفجوة التي تتسع يوما بعد يوم بين الشرق والغرب من أهم أسباب انتشار هذه الثنائيات في العالم العربي.

هـــنا أمور تحتاج إلى توضيح حتى يتبين للقارئ مدى عمق المأســـاة الـــتي يعيشها بعض المشتغلين بالتنظير بين العالم الإسلامي والغرب.

١- لم يتنبه هؤلاء إلى أن الإسلام ليس هو الكنيسة في موقفها من العـــلم والعـــلماء، وأن الآراء التي اعتنقها رجال الكنيسة في



العصور الوسطى لا تمت بسبب إلى الدين المسيحي الذي بشر بـه السيد المسيح عليه السلام ، وإنما هي خرافات وأضاليل استذل بها رجال الكنيسة عقول السذج من الناس، حتى يظهروا أمامهم أنهم المختصون بعلم الأسرار والكهنوت التي لا يعلمها إلا هم، والدين المسيحي، بل كل دين، هو بريء مما كان يدعيه رجال الكنيسة دينا ووحيا في هذا الشأن.

٢- إن أوربا لم تنهض لأنها تخلصت من الدين المسيحي، بل نهضت أوربا لأنها أخذت بأسباب النهضة من العلم – والحرية – والديمقراطية والتفكير العلمي، ولا ينبغي أن يخدعك زخرف القول بأن أوربا تخلصت من المسيحية لكى تنهض، فإن المسيحية تسكن في مفردات الحضارة الأوربية وفنونها وآدابها، يقول الفيلسوف الفرنسي رينان : " إن كل شيء يمكن أن يضمحل في عقولنا إلا الدين"، ويقول "اليوت" الشاعر الكبير في المسيحية نمت فنوننا وتأصلت قوانين أوروبا... وليس لتفكيرنا كله من معنى خارج الإطار المسيحي. وقد لا يؤمن أحدنا بأن المسيحية صحيحة، لكن كل ما يقوله أو يفعله نابع من تراثه المسيحي ويعتمد في معناه على ثقافته المسيحية... وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن لها أن تبقى إذا اختفى منها الإيمان

المسـيحي، فإذا ذهبت المسيحية فسوف تذهب كل ثقافتنا"، هـذا هـو حقيقة الموقف لمفكري أوربا من المسيحية كدين وعقيدة يستلهمونها في ثقافتهم"، وشئون حياتهم، وإذا كان هذا هـو موقـف الفلاسفة والمفكرين فإن الموقف الرسمي لساسة أوروبا من المسيحية كان أشد من ذلك تمسكًا بالمسيحية كثقافة للشعوب ومصدر إلهام لهم، فحين تولى هتلر (أبو النازية) رئاسة الوزارة في ألمانيا كان أول إعلان له هو أن الثقافة الإنجيلية هي الـثقافة الرسمـية لألمانيا، وأمر بأن تعلق صورة السيدة العذراء وابـنها على جدران المدارس، وأعلنت فرنسا أنها حامية لأتباع المذهـب الكاثوليكي في العالم، وأرسلت البعثات التبشيرية إلى بـلاد الشام وشمال إفريقيا، وبنت لذلك مدارس الفرنسيسكان والفريـر في كل مستعمراتها، وكذلك فعلت بريطانيا وبلجيكا وهولـندا وأمريكا، ولا تكاد تخلو دولة أوروبية من القيام بهذا النشاط التبشيري بالمسيحية في كل أنحاء العالم. فهل من المعقول أن نصـدق القـول بأن أوروبا نفضت يدها من المسيحية..؟ ولماذا لم يقرأ أصحاب هذه الأقوال تاريخ التبشير بالمسيحية في العالم الإسلامي ؟

٣- إن أوروبا لم ترفض المسيحية كدين وعقيدة، ولكنها رفضت



ســطوة رجــال الكنيسة ورفضت خرافاتهم وجهلهم باسم الديــن، والإسلام في حقيقته يبارك ثورة العلماء على الخرافة والجهل، لأنه جاء للقضاء عليهما معا، فالإسلام جاء ليؤسس العلم والتفكير العلمي كمنهج في التفكير والسلوك، ومنهج في السياســة والحكم، فكيف يقاس هذا بذاك؟ فمن المعروف أن طلــب العلم في الإسلام فريضة ومزاولة العلم عبادة وتسبيح لله، وكــلما أحيا العالم حقا فقد أمات باطلا، ومن هنا كان العلماء ورثة الأنبياء، وكان مداد العلماء عند الله يوم القيامة يوزن بدم الشهداء.

٤- إن الســؤال الذي يطرح نفسه الآن... ما هي مبررات هذه الثنائــية في عالمــنا الإســلامي (الديــن والدولة -أو الدين والسياســة- الدين والعلم)؟ إن طرفي هذه الثنائية لا تعارض بيــنهما في الإسلام، بل هما (توأم) يتعاونان ولا يتعارضان، فالإســلام يجعــل العلم عبادة والعلم الصحيح دين وعقيدة، والسياسة هي حراسة الدين وسياسة الدنيا في حراسة الدين، ولا انفصــال بين طرفي هذه الثنائية أبدا في التصور الإسلامي وأصحاب هذه الأصوات يجهلون من حقائق الإسلام بقدر ما يجهلــون مــن الظروف والملابسات والأسباب التاريخية التي

أفرزت هذه الثنائيات في أوروبا.

٥- لقــد التقــت أهواء العلمانيين على تمجيد النموذج الغربي - حضــارة وثقافــة - فنادوا ولا زالوا ينادون بتقليد النموذج الغربي بإقصاء الإسلام عن السياسة والاقتصاد والتعليم. وأخذ بعضهم يوحي إلى بعض زخرف القول، ليزينوا هذه الأكذوبة عند أصحاب القرار التنفيذي، ليعمل على تقليص منهج الدين في المؤسســات التربوية أو يحذفها بالكلية حتى ينشأ الجيل بلا عقــيدة ولا دين، ولو قرأ هؤلاء تاريخ الحضارات الإنسانية لأشــفقوا عــلى أنفسهم، لأنه لا توجد حضارة بلا دين أو اعتقاد تستمد منه روحها وتكون مصدر إلهام لها.

٦- ومــن الأمــور اللافتة للانتباه أن أصحاب هذه الأصوات ربما اســتقر في أذهــانهم الربط بين الواقع المتردي للمسلمين الآن، والإسلام كدين وعقيدة، وهذا الربط خطأ في المنهج كما هو خطــأ في الواقــع. ذلك أن التخلف الذي يعيشه المسلمون لا يحســب على الإسلام، بل هو دليل على أن واقع المسلمين في واد وإســلامهم في واد آخــر. ولو كان واقع المسلمين تطبيقا عملــيا للإســلام لكانوا صناعا للتاريخ كما صنعوه من قبل،

ولســـادوا به الدنيا كما سادوها من قبل. يوم أن كان الإسلام لهـــم عقيدة وشريعة علما وعملا اعتقادًا وسلوكا، ومن المعلوم أن المـــبادئ الصحيحة في ذاتها لا ينبغي أن نحكم عليها بالخطأ أو الفســـاد إذا لم يحسن المرء تطبيقها في الواقع، أو لم يطبقها بالكلية وإنما يعود الخطأ واللوم على الإنسان نفسه الذي يدعي الانتســـاب إلى هـــذا الدين أو ذلك المبدأ، فإن واقع المسلمين المتردي قد أسهم إلى حد كبير في انتشار هذه الثنائيات، لأنهم لم يـــأخذوا بأسباب النهضة، ولم يسلكوا سبيلها كما سلكها غيرهـــم، ومـــن طلب النهضة بغير الأخذ بأسبابها فقد طلب المســـتحيل، ذلك أن واقع المجتمعات الإسلامية يكاد يكون في خصـــومة دائمة منذ ما يقرب من ثلاثة قرون مع أسباب هذه النهضـــة من الحرية والعدالة والسياسة والعلم والمنهج العلمي، وكل هذه القيم النهضوية قد أمرهم بها الإسلام وجعلها مفتاح الخلافـــة والاستخلاف ومناط تحقيق وظيفة التسخير والتعمير ونسوا العمل من أجلها وانصرم من بين أيديهم الأخذ بأسباب النهوض وانصرفت عقولهم عن الاشتغال بها.

فـــلا ينـــبغي أن نلوم الإسلام، وإنما على المسلمين أن يلوموا أنفســـهم، ويـــتحملوا نتائج هذا الإهمال تخلفا وجهلا وتهميشا في



التاريخ. ويوم أن يحس العالم بكرامته، ويشعر المفكر بحريته، ويأمن صـاحب الـرأي على نفسه وعرضه وأهله يكون المجتمع قد وضع قدمه على البداية الصحيحة، للسير في الطريق الصحيح وتختفي هذه الثنائـيات مـن أدبـيات المجتمع المسلم، حيث ينتصر العلم للدين ويحتضـن الدين كل علم صحيح، لأن الدين حق والعلم الصحيح حـق، ومن المحال أن يتعارض الحق مع الحق، وإذا ظهر أمام بعض المفكرين ما يظنه متعارضا فعليه أن يعيد النظر فيما يدعيه دينا، فقد لا يكـون دينا صحيحا أو لا علاقة لـه بالدين، وقد يكون ما معه مـن علم ليس علما صحيحا وإنما هو من مواريث القوم وعاداتهم، أما أن يكون الدين حقا والعلم صحيحا فمن المحال أن يقوم بينهما التعارض، وهذا ما عليه الإسلام وما يؤمن به المفكرون المسلمون.





# الخطاب الدينى المفترى عليه



احتل الحديث عن الخطاب الديني مساحات كبيرة من الكتابات الصحفية والأحاديث اليومية في أجهزة الإعلام، وكذلك تعددت الندوات، وعقدت المؤتمرات الكثيرة وأسهم بالمشاركة فيها لفيف من المثقفين المتخصصين في العلوم الإسلامية، ومن الذين لا علاقة لهم بهذا اللون من الدراسات ولاتربطهم بها صلة إلا مجرد الحضور في مثل هذه المؤتمرات واللقاءات الثقافية تلبية منهم للدعوة الموجهة إليهم من القائمين على إعداد هذه الندوات، وربما كان بعضهم - كما هو واقع - من حملة الأقلام التي لا تكتب عن الإسلام إلا منفرين منه أو محرضين على الملتزمين به أو ساخرين من الدعاة إليه.

من يتابع ما كتب وما أذيع خلال العقد الأخير خاصة بعد أحداث سبتمبر — يتبين له أن هناك أقلاما وعقولا كانت جاهزة

ومعدة سلفا للانقضاض على الخطاب الديني، وأحيانا على خطاب الدين نفسه، كما لو كانت القضية عبارة عن معركة قد تم الإعداد لهـا بمفردات وبمصطلحات أشبه بالقنابل أو المقذوفات النارية، التي حملت في لهيبها كل أسباب تأخر المسلمين وأسباب أزماتهم الراهنة (اقتصاديا وعسكريا، وثقافيا وربطتها بالخطاب الديني، وحملته أوزار الأمـة وأوزار واقعهـا المؤلم، فوجدنا من يطالب بتجديد الخطاب الديني فيما يتعلق بقضايا المرأة حتى نعيد إليها حقوقها السلبية بسبب الخطـاب الديني، ووجدنا من يطالب بتجديد الخطاب الديني فيما يتصـل بقضـايا الجـاد وثقافة السلام ، و .... و .... وما أكثر المعطوفات من الأزمات الراهنة التي تسبب فيها الخطاب الديني عند هـؤلاء وهؤلاء، وبلغت خطورة الأزمات التي ترتبت على الخطاب الديـني أن عقدت له ندوات بفرنسا لترسم للمسلمين منهج التغيير والتجديد للخطاب الديني.

**لماذا التجـديـد ؟**

ولابد أن نشير هنا أولا إلى أننا لسنا ضد التجديد في الخطاب الديـني أسـلوبا ومنهجا وموضوعا على مستوى مفردات المناهج الدراسية – وهو الأهم من وجهة نظرنا - وعلى مستوى الخطاب

الدعـــوى والإعلامي، فهذا أمر ننبه إلى أهميته كمطلب ديني وأمر شـــرعي نادينا به ودعونا إليه وما زلنا ندعو وننادي بأهميته تجسيدًا لـــروح الدين نفسه وتحقيقا لمقاصد الشريعة التي تدور مع المصلحة المعتـــبرة شـــرعا وجـــودًا وعدما، ومن هنا كان من الآثار التراثية المحفوظة أنه حيثما وجدت مصلحة المسلمين فثمة شرع الله، وكان ﷺ يرســـل الدعاة ويوصيهم بأن يكونوا مبشرين لا منفرين، وأن يخاطـــبوا الناس على قدر عقولهم، ومن يطالع أبجديات علم أصول الفقـــه يتـــيقن تمامـــا من أهمية التجديد والاجتهاد حسب النوازل ومستحدثات العصور، لكن الذي قرأناه ونقرأه وسمعناه ونسمعه لا يتصـــل بالخطاب الديني فقط، بل يتصل بعضه بخطاب الدين نفسه، وفـــرق كبير بين تجديد الخطاب الديني الذي ندعو إليه ونطالب به والقـــول بتجديد خطاب الدين نفسه الذي يدعو إليه هؤلاء بوعي منهم بخطورة هذه القضية أو لا وعي.

ولقد كثرت الكتابات والأحاديث عن تجديد الخطاب الديني حـــتى أصبح الحديث عنه ممجوجا، وأصبحت كلمة "تجديد" كلمة هولامـــية لا مضـــمون لها ولا تحمل معنى محددًا، فما هو المطلوب تحديـــدا تحت هذا العنوان ؟ وهل الغاية المطلوبة هو تجديد الخطاب الديـــني أم المقصود تجديد خطاب الدين نفسه ؟ وإذا كان بعضهم

يكتب صراحة بأنه لا ثوابت هناك ولا مقدسات، وإذا كان البعض يكتـــب صراحة بأن النصوص الدينية ترتبط بزمانها تاريخيا ومكانيا وكذلـــك فإن الأحكام الشرعية التي يتضمنها النص الديني ليس لها عـــندهم صفة العموم ولا الإطلاق، بل لابد من تغيير هذه الأحكام الـــتي قد سنناها وأعطيناها صفة الإطلاق والعموم، ولا يغيب عن ذهـــنه أن يضرب لنا المثال بالحكم الشرعي الذي يجب تغييره، وهو نصـــيب المـــرأة في الميراث، والحجاب وبعضهم أعلنها صراحة بأن الإيمان بالغيبيات هو سبب ما نحن فيه من نكسات وتأخر إلخ..

فهل هذا حديث عن تجديد الخطاب الديني أم هو حديث عن خطاب الدين نفسه ؟! ووراء هذا اللون من الحديث ما وراءه الخ.

إن الخطـــاب الديني يدور على ألسنة المتحدثين والدعاة وفي كتاباتهم - حول قضايا أربع - العقائد - العبادات — المعاملات - الأخـــلاق وأن العقائد والعبادات والأخلاق تمثل ثوابت الدين وأسسه وأغلبها تتفق عليه الأديان السماوية الثلاثة، فإن ما صح من التوراة والإنجيل قد صدقه القرآن في هذه القضايا الثلاث، ويقيني أن الخـــروج مـــن الأزمات التي يعاني منها المجتمع لا يحتاج إلى تجديد الخطـــاب الديني بقدر حاجته إلى تفعيل الدين وربط حركة المجتمع

بأوامره ونواهيه، لأن تغيب الدين عن حركة المجتمع قد أسلم الأمة كـــلها إلى نـــوازع شـــيطانية تتحكم فيها أهواء النفوس المريضة فاستباحت الحرمات وداست المقدسات لأنه لم يعد هناك ما يصون الحـــرمات، ولا يحمـــي المقدسات بسبب تغييب الدين عن حركة المجـــتمع، فالأولى لانتشال الأمة من هذا السقوط أن يطالبوا بتفعيل الديـــن حتى تصان حرمات الأمة وتحمى مقدساهم، فلو كان الدين حـــيا في قلوب الأمة، لما نهبت الأموال من البنوك، وما احتكر تاجر قـــوت الأمة، وما تحول الطبيب إلى مضارب بصحة الإنسان، وما تحـــول المهندس إلى خائن في مواد البناء، وما... وما.. الخ، لأن في تفعيل الدين إحياء للرقابة الذاتية في داخل الإنسان وإحياء لضميره، فيه حياة لقلبه من الموات، فيه إصلاح لقلبه من الفساد.

مراقـــبة لله في ســـره وعلانيته وبهذا وفي هذا ينبغي أن نتلمس المداخـــل الصحيحة للإصلاح وإن كنا حقا نريد الإصلاح، وصدق الرسول ﷺ حين قال: « **إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** » فمن هنا ينبغي أن نـــبدأ بتفعـــيل الخطاب الديني، لقد ربط البعض بين الخطاب الديني وظاهرة الإرهاب، والذين روجوا لهذه الأكذوبة هي مراكز البحوث الـــتي أسســـتها الصهيونية ورصدت لها الميزانية الضخمة، لكي تروج

للفكر الصهيوني ضد الإسلام والمسلمين في أمريكا وأوربا، وكان أول ما أطلق هذا المصطلح الكريه على جماعة حماس في فلسطين، ثم تناقلها – للأسف الشديد – الإعلام العربي وقت أن كان الإعلام يتغنى بثقافة السلام، ولاكتها الأقلام كوصف ملازم للمسلمين وإفراز ثقافي للخطاب الديني في الإسلام، ولقد ظلموا الحقيقة بقدر ما ظلموا الخطاب الديني في هذه القضية، فإن للإرهاب المعاصر أسبابا اجتماعية واقتصادية وسياسية يقف على قمتها الطرف العالمي الظالم لقضية فلسطين وأبناء فلسطين، وهذا التواطؤ العالمي الذي لا نظير له في تاريخ الإنسانية على ظلم شعب ضاع وطنه وعرضه ومستقبله وأمله، وإذا رفع الواحد منهم حجرا في يده يدافع به عن نفسه ووطنه جعلوه إرهابيا ومتطرفا رافضا للسلام. أما من يدك منزله بالصاروخ والدبابة فهو رجل السلام الذي يستحق الجوائز.

هل سمعتم أو قرأتم في التاريخ قلبا للحقائق كما يجري الآن حول هذه القضية، ولماذا يغمضون أعينهم عن الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة وينسبونها إلى الخطاب الديني ... ولماذا لم يقرأوا الخطاب الديني الإسرائيلي، ليتعرفوا على مناهج التربية الدينية في إسرائيل، التي تربي أبناءها على التقرب إلى الرب بقتل العربي والفلسطيني واغتصاب أرضه وهتك عرضه.

إن الخطاب الديني الإسرائيلي هو المادة الأساسية التي يتشكل منها القرار السياسي الإسرائيلي في تحديد علاقتها بالعرب وبالأرض وبفلسطين، ليجعل منها شعبا مختارا، ويجعل من أرض فلسطين هدية الرب لإسرائيل ويجعل من دم العرب قربانا يتقرب به الإسرائيلي إلى ربـــه، فمال العربي وأرضه وعرضه مباح لليهودي يجب أن يستولى علـــيه ليرضـــي به ربه، هذه أمور تمثل الثوابت المقدسة في الخطاب الديني الإسرائيلي، فأين صوت أمريكا من ذلك ؟!

ولـــك أن تقـــرأ بعض المفردات لما يحتويه الخطاب التوراتي وينادي به الخطاب الديني في مناهج الدراسة في إسرائيل.

١- اقتل جميع الذكور في المدن البعيدة عن أرض الميعاد (تثنية ٢٠/ ١٨)، الآن اقتل كل ذكر بين الصغار (الخروج إصحاح ١٧- ١٤)، لا تلـــتمس ســـلامهم ولا خيرهم كل أيامك إلى الأبد (تثنية ٢٣- ٦ )، احترس من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض التي تحت يدك (خروج ٣٤/ ١٥)، إياك قد اختار الرب إلهك، لتكون شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض (تثنـــية ٧/ ٦) إن سمعت عن إحدى مدنك التي يعطيك الرب إلهـــك لتسكن فيها قولا فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد

السـيف، تجمـع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المديـنة وكل أمتعتها كاملة (تثنية ١٢/ ١٣) واعدك الرب أن تكون لـه شعبا خاصا وأن يجعلك مستعليا على جميع القبائل. الرب قد اختار يعقوب لذاته وإسرائيل لخاصته.

هذه نماذج قليلة من الخطاب الديني في إسرائيل، فأين أمريكا من هذه النصوص، أليست هذه النصوص تمثل برنامج عمل لسياسة إسرائيل الآن مع فلسطين وماذا نجد في التلمود من العقيدة العنصرية التي تدعو إلى نبذ الآخر وقتله وسلبه، اقرأ معي لتحكم أي الخطابين ينبغي تغييره الخطاب الإسلامي أم الخطاب الإسرائيلي؟

١- إذا ضرب (أمي) إسرائيليا ؟ فإن الأمي يستحق الموت ولو لم يخلق اليهودي لانمحت البركة من الأرض.

٢- إن الـنطفة المخلوق منها غير اليهودي نطفة حصان، يصرح لليهودي أن يطعم الكلب في الأعياد ولا يطعم الأمي.

٣- إذا رد الـيهودي مال الأمي الذي فقده فإن الله لا يغفر لـه ذنبه، يذنب اليهودي ذنبا لا يغفر إذا رد مال الأمي.

٤- إذا سرق اليهودي مال غيره الآدمي نال بركة الرب.

٥-كل مكان تدوسه أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان — من النهر (الفرات) إلى البحر الغربي يكون لكم لا يقف إنسان في وجوهكم.

٦- انظـــر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا؛ لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها لك ولنسلك إلى الأبد.

٧- إن لم تطـــردوا ســـكان الأرض مـــن أمامكم يكون الذين تســـتبقون مـــنهم أشواكا في أعينكم ومناخس في جنوبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها.

٨- أمـــرهم التوراة بحرق الأخضر واليابس وإبادة كل حي وقتل الذكور وسبي النساء (تثنية ١٢ - ١ - ٧).

هذه نماذج - وغيرها كثير - مما تخاطبنا به إسرائيل عملا لا قولا. منذ قرون من الزمن أين أمريكا من تعديل الخطاب الديني في إسرائيل؟ هل يجرؤ واحد من قادة أمريكا أن يطالبوا إسرائيل بتعديل مـــناهجهم الدراسية التي يتربى عليها الناشئة وسط هذا الزخم من الفكـــر والعقـــائد اللا إنسانية أم يخافون الوقوع تحت طائلة المعاداة للسامية؟ لماذا تغمض أمريكا أعينها عن هذا اللون من الفكر العقدي



الـــذي مـــا نزل به وحي ولا بشر به موسى عليه السلام وتطالب المسلمين بتعديل مناهجهم الدينية.

إن أساس الخطاب الإسلامي في حواره مع الآخر قائم على القاعدة القرآنية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

وفي الســـنة النبوية : « **كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعـــربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود، الناس سواسية كأسنان المشط** » ومبدأ المساواة هو مركزية الخطاب الديني في الإسلام.

فـــأي الخطابين يجب أن يكون دينا للإنسانية، وأيهما ينبغي تعديله ؟

ولا ينبغي أن يفهم أحد أننا هنا نقارن بين عقيدتين أو دينين — حاشا لله ومعاذ الله أن نكون كذلك – ولكن الذي ألفت النظر إليه أن مـــنطق القوة قد تسيدَّ ليعلو على قوة المنطق ليصور باطل الآخر حقا يجب اعتقاده ويصور حق المسلمين باطلا يجب تعديله أو تبديده

(١) سورة الحجرات : [١٣].

ومن المؤسف أن كثيرا من الكتاب قد شهروا أقلامهم ضد الخطاب الديـــني وحملوه أوزار الواقع وما يحمله من خطايا أبنائه وأصبح نهبا لكل ذي هوى يشرع فيه نابه ومخلابه.

ومـــرة أخرى أكرر لست ضد تجديد الخطاب الديني، بل قد ناديـــنا وما زلنا ننادي به، لكن أن تسن الرماح وتشرع الأسنة في وجـــه الخطـــاب الديني ويحمله البعض أوزارنا فهذا مجافاة للحقيقة وهروبا من علاج المشكلات التي نعيشها بمنهج علمي يكشف عن أســـبابها الحقيقية وجذورها الضاربة في أعماق المجتمع ليصح العلاج في النهاية.

فما دور الخطاب الديني في وجود الأزمات المتعددة التي يعاني منها المجتمع الإسلامي كله حتى نشن ضده هذه الحملة القاسية.

هـــل الخطاب الديني هو الذي خلق الأزمة الاقتصادية – أم هو سبب الأزمات المعاصرة في واقع الأمة ؟

هـــل الخطاب الديني هو السبب في نهب الأموال من البنوك والهروب بها، هل هو سبب التخلف المزري في مناهجها الدراسية؟ ! هل هو سبب الإفساد السياسي والاجتماعي في العالم الإسلامي هل هـــو ســـبب الهزائم والنكسات التي تعيشها الأمة منذ ما يقرب من

قـــرنين من الزمان؟ ما علاقة الخطاب الديني بأزمات الواقع في الأمة حـــتى نكون منصفين، إننا نعيب الخطاب الديني ونحمله أوزارنا في حين أن العيب فينا نحن إننا كما قال الشاعر قديما :

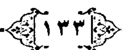
**نعيـــب زماننا والعيب فينا وما لزمانـــنا عيب سوانا**

إنـــنا في حاجة إلى شجاعة وقوة لمواجهة أنفسنا بهذه الحقيقة رغم قسوتها على النفس، لأن واقعنا الثقافي والاجتماعي خير شاهد عـــلى هـــذه الحقـــيقة فما بالنا نهرب منها ونحمل الخطاب الديني أوزارها.

أليس فينا ومنا من ينادي باختزال المواد الدينية من مؤسساتنا التعليمية أو التخلص منها كلها .

ألـــيس فينا ومنا من ينادي بإلغاء النص الدستوري على أن مصر دولة إسلامية وأن دين الدولة هو الإسلام ؟

ألـــيس فيـــنا ومـــنا من يكتب صراحة عن تاريخية الإسلام وتاريخـــية القـــرآن وأحكامه فهل هذا هو التجديد المطلوب الذي يدندن البعض حوله مبشرين بما تريده أمريكا في المنطقة ؟!!



نعم ... نحن نادينا وننادي بتجديد الخطاب الدعوى ليناسب لغــة العصر، وليضع المستمع في مواجهة مشكلاته المعاصرة بحلول إســلامية في ضوء قواعد الدين وأصوله وليس الانعتاق أو الانفلات مــن الضوابط الدينية تحت هذه المسميات التي تشبه وضع السم في إناء العسل.

ومــا لم نصــدق مــع أنفسنا ومجتمعنا وواقعنا في تشخيص أمراضــه وعلاجها بالمنهج العلمي - لا الانفعالي - فإننا بذلك لم نؤد حق الوطن علينا.

وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.



٧

# من معالم المنهج التربوى عند الإمام الغزالى

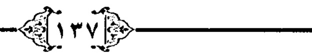
يعتـــبر أبـــو حـــامد الغزالي من كبار المفكرين الذين اهتموا بـــالأخلاق ودراستها على نحو منهجي وصوفي يمزج فيه بين العلم والعمل، وقد اختلط عنده الدرس الأخلاقى بالدرس التربوي العملي بدراســـة النفس وأحوالها، وجاء كتابه العظيم "إحياء علوم الدين" موسوعة في الدراسات الأخلاقية التربوية على سواء، حيث جمع فيه آراءه التي أفرد لها مصنفات صغيرة في شكل رسائل أو أجوبة على أسئلة، وجهها إليه بعض مريديه أو اتخذها منهجا لـــه؛ ليطرح آراء إجابة على سؤال يتصل بموضوعه التربوي.

وإذا أضفنا إلى كتاب إحياء علوم الدين مصدرا مهما اعتمد

علـــيه الغـــزالي وأفاد منه كثيرا في كتابه الإحياء وهو كتاب "قوت القلوب" لأبي طالب المكي من كبار أئمة التصوف نكون بذلك قد وضـــعنا أمام أعيننا أهم كتابين في الدرس الأخلاقي عند الصوفية، ولعل العنوان الذي اختاره كل من الغزالي والمكي لكتابه يحمل دلالة قويـــة في بـــيان المعنى المقصود لكل منها من تأليف كتابه. فالغزالي وسم كتابه "بإحياء علوم الدين" وصرح في أول الكتاب أنه يشكو مـــن انصراف الخلق عن الاهتمام بالجوهر والمضمون إلى الاهتمام بالشـــكل والمظهـــر. خاصـــة في السلوك وممارسة الشعائر الدينية والطقـــوس، وأن البحـــث عن المعنى والمضمون قد ضاعت معالم الاهـــتمام بـــه حيـــث لم ينشغل به أحد، وتحولت عبادات الناس وممارساتهم للطقوس الدينية أعمالاً مظهرية يخلو من الإحساس القلبي والشـــعور الوجـــداني، وبالتالي لم يظهر أثرها في حياة الناس محبة وتـــراحما وتواضعا ومودة بين الناس، فوضع هذا الكتاب، ليحيي به هذه المعاني الدينية في قلوب الناس، وليلفت نظر الناس إلى أن أهمية تطهـــير الباطن أكبر وأهم من الاهتمام بتطهير الظاهر، وأن صحة القلب من أمراض النفاق والرياء و ...و ... أهم من صحة البدن؛ ولذلك وسم كتابه "بإحياء علوم الدين"؛ ليربط بين النظر والعمل، بين الدين والأخلاق.

إن هـــذا السفر العظيم يعتبر ثورة روحية في وجه أصحاب الطقوس والشعائر الجوفاء التي لا تعبر عن حياة القلب وامتلائه بمعاني الإيمان بقدر ما تعبر عن سلوك مظهري لا يتجاوز أثره موقع أقدام صـــاحبه، ولذلك نجد الغزالي يصرخ بصوت عال في وجوه المريدين أن يقـــترن الســـلوك المظهـــري وعمل الجوارح بحياة القلب ويقين الاعتقاد، ليكون القلب المؤمن والعقيدة الحية هي التي تحرك الجوارح حـــبا في الالتزام بالأوامر والنواهي؛ وليس نفاقا للمجتمع أو كسبا للشـــهرة، ولذلك كان اختيار هذا الاسم المعبر عن أهداف الغزالي ومقاصده (إحياء علوم الدين).

وكذلـــك فعـــل أبو طالب المكي، حيث وسم كتابه العظيم "قوت القلوب" ونبه فيه أن قوت القلوب أهم وأولى بالاهتمام من قوت البدن وأن عافية القلب وصلاحه سوف تنضح على الجوارح سلوكا أخلاقيا؛ لأن صلاح الجسد مرتبط بصلاح القلب كما قال الرســـول ﷺ : "**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فســـدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**" وقوت القلوب التي أشار إليها المكي في كتابه هي المحامد الأخلاقية التي نبه إليها الشرع وجعـــلها أمـــارة للســـيرة الحسنة. من الإخلاص. التوكل، الصبر، المراقبة، المحاسبة، الذكر.. الخ.



وفي هذيـــن السفرين العظيمين نجد المنهج التربوي والأخلاقي معا، وفي هذين الكتابين نجد الدراسة الأخلاقية ممزوجة بالروح الدينية وإن شئت فقل نجد الأوامر الدينية ممزوجة بالفضائل الأخلاقية إعلانا لقوة الترابط بين المعنى الديني والمعنى الأخلاقي الذي عبر عنها الرسول ﷺ في قوله: "**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**" لقد ظهرت الدراسات الأخلاقية عند الغزالي تحت أسماء متعددة تنـــزع في معظمها منـــزعا صـــوفيا، لأنه قد اهتدى في نهاية رحلته العلمية إلى أن الطريق الصوفي هو أقوم الطرق وأنفعها لمن أراد الوصول إلى الحقيقة من غير جمجمة ولا مداهنة ولا مراعاة لجوانب الخلق، ولذلك جاءت آراؤه الأخلاقية تحـــت أسماء ومصطلحات أقرب إلى التصوف منها إلى علم الأخلاق مـــثل: طـــريق الآخـــرة، علم المكاشفة، علم صفات الخلق، أخلاق الأبـــرار، أســـرار المعـــاملات الدينية، علم المراقبة، المحاسبة كل هذه المصطلحات أو غيرها كثير عند الغزالي، وإن كانت هذه المصطلحات تنـــتمي إلى حقـــل الدراسات الصوفية إلا أنها في حقيقتها لها دلالتها الأخلاقـــية عـــند أبي حامد الغزالي، ولذلك نجده يتحدث كثيرًا عن الـــنفس والخلـــق وأحوال النفس وعجائب القلب وعلاقته بالجوارح وجـــنود النفوس والحواس وعلاقتها بالقلب، وأثر ذلك كله في قيمة السلوك الإنساني وتحقيق المعنى الأخلاقي في السلوك.



يــرى الغزالي أن علم الأخلاق علم معياري عملي وأن أي عــلم لا ينتج عملا يعتبر مضيعة للوقت والجهد معا، ولذلك وجب أن يقــترن الــنظر الأخلاقي بالسلوك العملي ولا ينفصل عنه. وقد عرف الغزالي علم الأخلاق في كتابه إحياء علوم الدين بأنه "هيئة في الــنفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، ومن غير حاجة إلى فكر أو روية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمــودة عقلا وشرعا سميت الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا" وعرف الأخــلاق في مواضع أخرى من كتبه، فقال في كتابه ميزان العمل بــ: أن الأخلاق إصلاح القوى الثلاث قوة التفكير، وقوة الشهوة، وقوة الغضب.

كمــا عرف الأخلاق في مكان آخر من الكتاب نفسه بأنها: إزالــة جميع العادات التي نبه الشرع إلى تجنبها وبغضها والتعود على العادات التي حسنها الشرع ورغب فيها، وهنا نجد الغزالي يوحد بين الأمــر الديــني والمعنى الأخلاقي فتكون المعاني الأخلاقية هي التي حسنها الشرع فقط اتساقا مع موقفه الأشعري.

ولا تعــارض عــندي بــين كل هذه التعريفات لأن القصد

والغايـــة مـــنها واحـــدة، وهي الحرص على تقويم السلوك ووضع ضوابطه سواء كانت هذه الضوابط مصدرها الشرع والعقل معا أو الشرع فقط حيث لا تعارض بينهما عند الغزالي.

ومـــن اللافـــت للنظر هنا أن الغزالي ينبه إلى أن الخلق الذي يتصـــف بـــه الإنســـان ليس هو الفعل الصادر عنه، وإنما هو الهيئة النفســـية والحالة القلبية التي يصدر عنها الفعل، فإن صفة الخلق لا تطلق على السلوك، وإنما تطلق على الحالة النفسية التي يقع السلوك تبعا لها. فرب إنسان غير كريم ولا معطاء، لكنه يبذل المال ليقال إنه كريم أو يبذلـــه رشوة، فهذا السلوك وإن كان يدل على الكرم في مظهره إلا أن الهيئة النفسية التي صدر عنها الفعل ليست محبة الكرم، بـــل هي الرشوة حبا في قضاء المصلحة مثلا، ولذلك لا يسمى هذا الفعل كرما، وكم من شخص خلقه البذل والعطاء، ولكنه لا يملك ما يبذله فهذا لا يصح أن يسمى بخيلاً.

**الاعتدال بين القوى الثلاث:**

ويســـتعير الغزالي من الفلسفة الأفلاطونية فكرة الاعتدال بين قوى النفس الثلاثة قوى النفس الغضبية، قوى النفس الشهوانية وقوى النفس العاقلة، والاعتدال في استعمال هذه القوى الثلاث يكون بحسن

توظيفها فيما خلقت لأجله، فالقوى الغضبية يتحقق الاعتدال في توظيفها بحيث لا يكون صاحبها متهورًا، ولا جبانا، لأن وظيفتها تحقيق ملكة الشجاعة، والشجاعة وسط بين التهور والجبن، فإذا أفرط في استعمال القوى الغضبية صار متهورًا، وإذا فرط في استعمالها وأهملها صار جبانا، وكلاهما مذموم (الجبن والتهور).

وكذلك الإفراط أو التفريط في استعمال القوى الشهوانية كلاهما مذموم، والمحمود هو توظيفها لتحقيق ما خلقت لأجله وهو حفظ النسل، ومن هنا شرع الزواج لإشباع حاجة النفس بمنهج شرعي يحفظ العفة ويصون المروءة.

وفضيلة القوى العاقلة تتحقق بالحكمة التي ينبغي أن يكون عليها العقلاء، وأخيرا لابد أن تسيطر القوى العاقلة على القوتين الأخيرتين (الغضبية والشهوانية) حتى يكون الإنسان معتدلا في سلوكه، لأنه إذا سيطرت القوى الغضبية صار الإنسان إلى السباع والوحوش أقرب، وإذا سيطرت القوى الشهوانية صار إلى الحيوان أقرب، أما إذا سيطرت القوى العاقلة كان حكيمًا وإلى الأنبياء أقرب.

**يقول الغزالي**: فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا، ومن اعتدل فيه بعضها دون بعضها فهو حسن



الخلــق بالإضــافة إلى ذلــك المعنى خاصة، وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة، وحسن القوة الشهوانية واعتدالها يعبر عــنه بالعفة، فإن مالت قوة الغضب إلى طرف النقصان تسمى جبنًا وخورًا، وإن مالت قوة الشهوة إلى الزيادة تسمى شرها، وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودا، والمحمود هو التوسط والطرفان رذيلتان مذمومــتان، والعدل إذا فات فليس له طرف زيادة ونقصان بل له ضــد واحــد يقابلــه هو الجور، وأما الحكمة فيسمى إفراطها في الاســتعمال في الأغــراض الفاســدة خبثًا، ويسمى تفريطها بلها، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة، ويخلص الغزالي من ذلك إلى القــول بــأن أمهات الفضائل أربعة: الحكمة والشجاعة، والعفة، والعــدل، وعرف الحكمة بأنها حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية.

أمــا العدل فهو حالة نفسية أو هو قوة في النفس بها يسوس الإنســان القــوى الشهوانية والقوى الغضبية ويضبطهما بضوابط الحكمة حتى يصونهما من الإفراط والتفريط.

أمــا الشــجاعة فقد عرفها بأنها ملكة في النفس تجعل القوة الغضبية منقادة لمنطق الحكمة في إقدامها على الفعل أو إحجامها عنه.

ويعـــني بالعفـــة تأدب القوة الشهوانية بآداب الشرع والعقل معـــا، ومن اعتدلت عنده هذه الملكات الأربع صدرت عنه الأفعال كلها على هيئة أخلاقية محمودة في العقل مرضية في الشرع.

وقـــد ســـبق إلى القول بهذه الفضائل الأربع كل من الفارابي والكـــندي وابـــن سينا، لكن على أساس أنها ملكات عقلية وقوى نفسية معيار الاعتدال فيها هو العقل فقط، والوسطية التي تكون بين طرفيها هي وسطية عقلية، لكن الغزالي أضاف إلى ذلك شرطًا مهمًّا جـــدًّا جمـــع فيه بين وسطية العقل ونور الشرع حين جعل الشرع حاكمـــا في القول بجواز الفعل أو عدم جوازه، فلابد من أن يكون الفعل مما أمر به الشرع حتى يكون محمودًا في العقل، ليجمع في ذلك بـــين نور الشرع ونور العقل معا. تأكيدًا على أن الأوامر الشرعية تحمل في مضمونها المعاني الأخلاقية.

**تعديل السلوك عند الغزالي:**

مـــزج الغزالي فكرة الأخلاق بنظريته في التربية فجعل سلوك الإنسان قابلا للتعديل والتغيير من سيء إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، ورفض القول بأن أخلاق الإنسان خاضعة للطبيعة والمزاج الذي لا يقبل التعديل، خاصة الذين جعلوا الخلق صورة الباطن كما



أن الخلق صورة الظاهر، وكما أن الخلق الظاهري لا يتغير فكذلك الخلق الباطن لا يتغير، وأن أي محاولة في تغيير خلق الإنسان سوف يكون مصيرها الفشل.

وقد أشار الغزالي إلى هذه القضية في العديد من مؤلفاته، لكن زادهــا شــرحا وتفصيلا في كتابه "الإحياء"، حيث صرح بأن كل كائن حي يمكن تعديل سلوكه وتقويم خلقه، حتى الحيوان نفسه فإنه قابل للتعديل والتغيير في سلوكه. فكم من حيوان قد أصبح مستأنسًا بعد أن كان متوحشًا، وذلك بالترويض والتدريب وكثرة الممارسة، ولــيس المقصود من تعديل السلوك عنده استئصال شأفة الأخلاق الرديــئة كلية أو اقتلاعها من النفس، وإنما المقصود هو الترويض لها لتحصــل منها على فائدها وتتقي شرها، فإننا لو قضينا على القوى الشــهوانية بالكلــية لفاتت شهوة الطعام، وهلك الإنسان، وفاتت شــهوة الجماع وهلك النسل، وقد ظن ذلك طائفة، حيث قالوا إن المجاهدة تقضي على هذه الشهوات بالكلية.

**يقول الغزالي:** وهيهات لهم ذلك فإن الشهوة خلقت لفائدة ضــرورية لا تســتقيم الحياة بدونها، لأن الله خلقها لحكمة جليلة ولأداء وظــيفة جليلة وبدونها لا تستقيم الحياة، والمطلوب ترويضها

بحسن توظيفها.

## خطوات تقويم السلوك عند الغزالي:

وأول خطوة يرشد إليها الغزالي في تقويم السلوك وتعديله أن يتعرف الإنسان على عيوب نفسه ويعترف بها، وهذا أمر يصعب أن تتحقق منه أو تعترف به، ولذلك أشار الغزالي إلى أمور يسترشد بها الإنسان إذا أراد أن يصلح نفسه.

**الأول:** أن يجلس المرء بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس خبير بخباياها، عالم بأسرارها يتعلم منه ويأخذ عنه ويسترشد بنصائحه وإشاراته في مجاهدة نفسه وكيفية ترويضها، لأن الأمر في ذلك يحتاج إلى معلم ثقة وشيخ قدوة ومجالسة الصالحين عبادة، وخاصة مجالسة أهل ذكر الله الذين خلصهم الله لنفسه واصطفاهم ونقاهم من شرور أنفسهم، فإن في مجالستهم إفاضة لعلومهم وخلقهم على مريديهم.

**الثاني:** ألا يصادق إلا صدوقا متدينا شجاعا في قول الحق فيتخذ منه رقيبًا على نفسه يرى منه عيوبه لأن المؤمن مرآة أخيه. فيلاحظ أحواله وأقواله وينبه إلى ما يراه من عيوب ومساوئ.

**الثالـــث:** أن يســـتفيد من ذكر عيوبه على ألسنة أعدائه فإن العادة جـــرت على أن العدو مهتم بالبحث عن العيوب والتحدث بها، وربما التهويل من شأنها والمبالغة فيها، فعلى المرء أن يجعل ذلـــك مرآة ينظر فيها إلى ما يذكره العدو، فما كان صحيحا حاول أن يتخلص منه، وما كان خطأ احتسبه عند الله.

**رابعًا:** أن يخالط الصالحين من الناس فما رآه مذموما على ألسنتهم اتهـــم نفسه به لأن الطباع متقاربة ويحاول أن يحاسب نفسه للتخلص من هذه العيوب.

وإن صدق المرء في ذلك فإنه يكون قد بدأ الطريق في إصلاح ذات البين، فيحظى بالجود الإلهي، فيأخذ الله بيده إلى شاطئ الأمان ويـــرقى في ســـلم الهداية، كما قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ٦٩﴾ [العنكبوت ٦٩].

وينـــبه الغزالي إلى خطورة مخالطة الأشرار أو مصادقتهم فإن عـــدوى السوء أسرع إلى النفس وأقوى في متابعة الهوى، كما قال الشاعر:

**واحـــذر معاشرة الدنيء فإنها تعـــدي كمـــا يعـــدي السليم**

وأكثر ما يكون ذلك خطرا في سن الصبا وعمر الطفولة، فإن العـدوى السـيئة تكون أسرع من النار في الهشيم، ولذلك يحذر الغـزالي من ذلك وينبههم إلى حسن تربية الطفل باختيار أصدقائه وجلسـائه، وأفـرد لذلك بابا مستقلا في رياضة الصبيان في أول نشأتهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم، وقد لخص منهجه في تربية الطفل وتحسين خلقه، فبين ما يجب على الوالد نحو ولده من رعاية فيما يأتي:

- تأديـبه وتعويده على محاسن الأخلاق وحفظه من مخالطة قرناء السوء.
- أن لا يحبب إليه الزينة والرفاهية، لئلا يتعود على مداخل هوى النفس فيعسر تقويمه، وهذا أسلوب وقائي للعلاج.
- أن يـتعود في تناول الطعام أن يأكل بيمينه ومما يليه وأن يبدأ باسم الله.
- أن يتعود على اللباس المحتشم.
- أن يـأخذه بأسلوب الثواب والعقاب والمدح أمام الناس، وألا يكون عقابه على كل زلة أو خطأ، بل الأفضل أن يتغافل عن

بعـــض الأمور، خاصة إذا خجل الطفل منها وتستر وأخفاها عنك فلا تفاجئه بها، وألا يكون العقاب علنا أمام قرنائه، حتى لا تزيد جرأة الطفل، وأن يكون العقاب قليلا مناسبا للفعل.

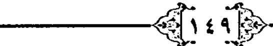
- تعويده على الإعطاء لا الأخذ، ومنعه من الافتخار على قرنائه بما يملك.
- تعويـــده عـــلى الإقلال من الكلام إلا لحاجة لأن كثرة الكلام توقع في الخطأ.
- تعويده على الصبر، وتخويفه السرقة، وأكل الحرام.
- إحـــياء حاسة الرقابة الذاتية، بحيث يكون هو رقيبا بنفسه على نفسه، حتى تبعث فيه الثقة وقوة الشخصية.

وهـــذه النصائح التربوية الرفيعة قد جسدها الغزالي في رسالة عالـــية القـــدر تكتـــب بحروف من ذهب نلفت إليها نظر المربين، ليشغلوا أنفسهم بها منهجا وأسلوبا راقيا في تربية الأبناء وهي رسالة "أيها الولد".



## ٨

# مناسك الحج وفلسفة الإسلام في رفع الحرج



إن الله سبحانه وتعالى فرض على المؤمنين شعيرة الحج وجعلها الركن الخامس من أركان الإسلام؛ ليكتمل بها بناء العقيدة الإسلامية، وجعل هذه الفرائض كلها معلقة بقاعدة أساسية يتوقف عليها إلزام المؤمن شرعا بتنفيذها والتزامه بها أمام الله وأمام نفسه وهي قاعدة الاستطاعة قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [1]. وقال سبحانه : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [2].

ويعلم أهل الذكر في ذلك أن التكاليف الشرعية كلها على مستوياتها المختلفة من الواجب والسنة والمندوب معلقة بالاستطاعة ورفع الحرج، ومن جانب آخر فإن أوامر الله ونواهيه التكليفية تدور كلها حول تحقيق مصالح الإنسان دينا ودنيا، ودرء المفاسد ودفع

(١) سورة البقرة: آية [٢٨٦].
(٢) سورة الطلاق: آية [٧].

الضـــرر عنه في دينه ودنياه، وكلما كانت المصلحة أدخل في باب الضـــروريات كان الحكم الشرعي بها ألزم للإنسان، ولعل من هنا كـــان تفاوت الأحكام الشرعية بين الفرض العيني والكفائي والسنة والمندوب والحرام والمكروه، فإن تقسيم الأحكام إلى هذه المستويات ليس تقسيما عشوائيا، وإنما هو تقسيم يتعلق بتحقيق المصالح ومدى اعتبارها في الضروريات الإنسانية، ودرء المفاسد ومدى اعتبارها في بـــاب دفـــع الضـــرر المحقق أو المظنون، ومن هنا كانت الأحكام الشـــرعية تـــتفاوت درجاتها بحسب تعلقها بحياة الإنسان، وتحقيق المقاصـــد الشرعية التي نص عليها علماء الأصول وهي حفظ النفس والعقـــل والمال والدين والعرض. وكلها تدور حول تحقيق المصالح ودرء المفاســـد ودفـــع الضـــرر، ومن المعلوم في كتب الأصول أن الوسائل التي يتحصل بها تحقيق هذه الأحكام الشرعية تأخذ حكمها أيضـــا مـــن باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، فإن الوسائل تأخذ أحكام المقاصد والغايات في باب الواجب، وفي باب الحرام والمكروه، ولذلك قيل إن الأمور بمقاصـــدها، فإذا كان ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فكذلك كل ما أدى إلى الحرام فهو حرام.

مـــن هنا نستطيع القول إن كل أوامر الشرع تقصد إلى تحقيق

مصلحة الإنسان، وكل نواهي الشرع تدور حول درء المفاسد ودفع الضرر عنه، وقد يغيب هذا المعنى عن ذهن المشتغلين بالفتوى، فيقفون عـــند حد ظواهر النص دون فقه لمعناه ودون فقه لمقاصد الشريعة من الأمر والنهي، ودون فقه لترتيب الأحكام الشرعية والأخذ بالأوليات عـــند تعارضها هذه أمور مقررة شرعا في كتب الأصول وفي آيات الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله علم ذلك من علمه وجهل ذلك من جهله، وفلسفة الإسلام في دفع الحـــرج عـــن الـــنفس البشرية هي مبدأ عام شامل لكل التكاليف الشرعية بأحكامها المختلفة قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ** ﴿٧٨﴾﴾ [1]. وقـــال ﷺ : « **إن هذا الدين متين فأوغل فيه بـــرفق فلن يشاد الدين أحد إلا غلبه** »، وما خير رسول الله ﷺ بين أمـــرين إلا اخـــتار أيســـرهما، وكثيرا ما كان يقول ﷺ لأصحابه: « **يسروا ولا تعسروا بشروا ولا تنفروا** » وكان منهجه ﷺ في تطبيق هذه القاعدة (رفع الحرج) عاما وشاملا لكل الفرائض الشرعية.

فالصـــلاة وهـــي عماد الدين من عجز عن الإتيان بها واقفا

(١) سورة الحج: آية [٧٨].

شرع له ﷺ أن يأتي بها قاعدا أو مضطجعا أو يجري أركان الصلاة على قلبه.

والزكاة لا تجب إلا عند بلوغ نصابها وبشروطها وفريضة الصيام، شرع بجانبها، الكفارة والقضاء فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر، وعلى الذين يطيقونه فدية، فتلاحظ معي أيها القارئ الكريم أن هذه الفرائض كلها تدور مع الاستطاعة وجودًا وعدمًا وقصر الصلاة في السفر وجمع الصلاة عند الحاجة المعتبرة شرعا، كل ذلك دليل على أن فلسفة الإسلام في رفع الحرج عن النفس البشرية مبدأ عام وشامل في تطبيق الإسلام لهذه الفرائض الشرعية، وهذا منهج في تربية النفس وحسن ترويضها على تحمل المشاق في تنفيذ هذه الأوامر واستيعاب الأحكام ومقاصدها على نحو من التدرج الذي يرغب ولا ينفر ويحقق معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ واقتداء بقوله ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ».

هذه مقدمة أراها ضرورية لنتبين منها روح الإسلام في تطبيق أحكامه وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، فهي ليست أحكاما صماء منعزلة عن واقع حياة الإنسان وظروفه الحياتية، بل هي تدور في تطبيقها مع ظروف الإنسان وواقع حياته واستطاعته كما قال تعالى:



﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (١).

إذا انتقلــنا من هذه المقدمات إلى فريضة الحج ومناسكها وما يتعلق بها من أحكام متفاوتة بين الواجب والسنة والمندوب، وبين ما لا يــتم الحج إلا به كالوقوف بعرفة، فمن فاته عرفة فقد فاته الحج ، وما يجــوز فــيه الكفارة وينوب عنه الفداء، وقارنا بين موقف المسلمين وسلوكهم في فريضة الحج، ومقاصد الشريعة وما يحيط بها من قواعد رفــع الحــرج ودفــع الضرر نجد أن سلوك كثير من الحجاج في واد ومقاصد الشريعة وغاياتها في واد آخر، وسبب ذلك من وجهة نظرنا يــرجع إلى موقف الذين يتصدون لفتوى المسلمين ويقفون بهم عند ظاهر النص دون فقه لمعناه ودون فقه لواقع المسلمين في مناسك الحج.

إن فريضة الحج هي الركن الوحيد الذي فرضه الإسلام مقرونا بالاســتطاعة نصا دون بقية فرائض الإسلام. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (٢). فجعــل القرآن الكــريم الوجوب الشرعي معلقا بالاستطاعة، والاستطاعة هنا كلمة عامة تشمل الاستطاعة المالية والبدنية، وتحقيق الأمن والأمان للنفس

(١) سورة التغابن: آية [١٦].
(٢) سورة آل عمران: آية [٩٧].

الإنســانية مــن حين خروج الحاج من بيته قاصدا للحج إلى حين عودتــه إلى بيته، فإذا لم تكن الاستطاعة متوفرة سقطت الفريضة، ومــبدأ الاستطاعة اعتبره الشارع في كل مناسك الحج، فإذا كانت الاســتطاعة موجــودة مــع نسك فقد وجب أداؤه وإذا لم تتوفر الاســتطاعة في نسك آخر سقط أداؤه ويجزئ عنه الفدو كما قال تعالى: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا** ﴾ (1). فمبدأ الاستطاعة عام وشامل لكل مناسك الحج كما سبق.

ولمــا نــزل قولــه تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلاً** ﴾ (2). تساءل الصحابة هل في كل عام نحج يــا رسول الله؟ فقال ﷺ : « **لا. ولو قلت نعم لوجبت** »، ولا شك أن ســؤال الصحابة كان مصدره الحرص التام على الالتزام والتنفيذ الكامل لأوامر الله ورسوله في هذه الفريضة، ولا شك أيضا أن إجابة الرسول ﷺ كانت مشمولة بمبدأ رفع الحرج تحقيقا لمعنى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٍ** ﴾ (3). ولــو أخذنا الآية عــلى ظاهــرها لأدى ذلــك إلى القــول بالوجوب كلما توفرت

(1) سورة البقرة : آية [٢٨٦].
(2) سورة آل عمران: آية [٩٧].
(3) سورة الحج: آية [٧٨].

الاستطاعة، ولكن الرسول ﷺ قد راعى في إجابته مبدأ رفع الحرج فقال: لا، وجعل هذه الفريضة واجبة في العمر مرة واحدة إذا تحققت الاستطاعة، وفي هذا من التيسير على المسلمين ما فيه.

ولو تأملنا واقع المسلمين وسلوكهم في فريضة الحج سوف نجد أن كثيرا من سلوكيات الحجيج تتنافى مع الروح العامة لمقاصد الإسلام من هذه الفريضة، كما تتنافى أيضا مع هدي الرسول وصحابته، حيث نجد أن بعض المسلمين يلزم نفسه بما لا يلزم شرعا في سلوكه ولا في هديه، فتجد بعض الناس يقترض، وقد يكون هذا الاقتراض ربويا، ليؤدي فريضة الحج وتجد البعض الآخر يبيع ما هو داخل تحت بند الضروريات له ولأولاده، ولا شك أن هذا السلوك يدل على العاطفة الدينية القوية والحرص الشديد على الالتزام، لكنه يدل من جانب آخر على عدم الفهم لمقاصد الشريعة وروحها العامة، ناهيك عما يقع فيه الحجيج أثناء مناسك الحج من تجاوزات تتنافى مع هدى الرسول ﷺ ومع مقاصد الحج، إذ من المعلوم أن الرسول ﷺ كان يأخذ في سلوكه بمبدأ التيسير في مناسك الحج، فكان يسأله الصحابة عن الأمر الذي يرون فيه حرجا، فكان يقول: افعل ولا حرج، وما سئل عن شيء في الحج إلا قال افعل ولا حرج، ولما كان يوم عرفة وقف الرسول ﷺ واشتد حرص



الصـــحابة على الوقوف بنفس المكان الذي وقف فيه الرسول ﷺ اقتداء وتيمنا. فقال لهم الرسول ﷺ إني وقفت ها هنا وعرفة كلها موقـــف، ليبين للصحابة أن الأمر على التيسير والسعة رفعا للحرج ودفعا للحرج ودفعا للمشقة.

ولكنـــنا نجـــد بعض المسلمين يلزم نفسه بأمور لا علاقة لها بنســك الحج وليست مطلوبة منه شرعا ولا عقلا وقد يترتب عليها مـــن الضرر والمفسدة ما لا يعلمه إلا الله، فنجد البعض يلزم نفسه بالجلوس في لظى الشمس وقسوة الحر ويترك مكان الظل ظنا منه أن في ذلك ثوابا أعظم ودرجة أرقى ورضى لله أكثر، وتجد الآخر يلزم نفســه بالمبيت على جبل الرحمة واقفا به طيلة يوم عرفة متحملا في ذلــك مشـــقة الحر والزحام ظنا منه أن ذلك مجلبة للثواب وتحقيق لرضـــى الله، أو يظن أن ذلك من مناسك الحج وكمالها، وبعضهم يحـــتج لذلك بأن الأجر على قدر المشقة، دون تفرقة بين المشقة التي تقتضيها طبيعة النسك ويتطلبها القيام به، والمشقة الأخرى التي يلزم الحـــاج نفسه بها، وهي ليست من لوازم النسك ولا من مقتضياته، وإنما هي من باب إلزام ما لا يلزم.

أمـــا المشكلة الكبرى التي تحتاج إلى بذل الجهد من المسئولين



في أقطـــار العـــالم الإسلامي، لكي يقوم العلماء في كل قطر بتوعية الحجـــيج بها وبمقاصد الشريعة منها، وما قد يترتب عليها من مخاطر تـــتعارض مع هذه المقاصد الشرعية هي نسك رمي الجمرات، وما يكتنفه من مخاطر قد أدت إلى إزهاق أرواح كثيرة في سنوات متتالية بســـبب الـــزحام الشديد والمشقة التي يكابدها الحجيج في أداء هذا النســـك "رمـــي جمرة العقبة" في وقت محدد من زوال الشمس إلى غروبها، وتحديد وقت الرمي بهذه المدة الزمنية القصيرة، كان مناسبا لعصر الرسول ﷺ حيث العدد القليل وفي الوقت متسع لذلك، أما الآن وقد زاد عدد الحجيج على المليونين فإن الأمر يحتاج إلى اجتهاد الفقهـــاء، يحتاج إلى نوع من الفتوى التي تراعي أداء النسك وتحقيق مصـــلحة المسلمين في ضوء ما قدمناه من مبدأ رفع الحرج والتيسير، ولا شك أن حفظ النفس مقصد من مقاصد الشريعة بل هو أولها. وحرمة النفس عند الله تعالى أشد من حرمة الكعبة، وفي هذه الحالة ينـــبغي عـــلى المفتين أن يراعوا أولويات الشريعة في الفتوى، فإذا تعارضـــت سنة مع واجب كان من الأولى المحافظة على الواجب، وإذا تعارض نسك مع مقصد كلي من مقاصد الشريعة كان الأولى المحافظة على المقاصد الكلية التي هى غاية الأوامر والنواهي، وفلسفة الإسلام في رفع الحرج هي الشعار العام الذي ينبغي أن يأخذ المفتون



بــه في سياستهم للحجيج، وأن يراعوا أن تفاوت الأحكام الشرعية بــين الواجب والسنة والمندوب راجع في أسبابه إلى تحقيق المصالح ودرء المفاســد وأن درء المفاســد مقدم على جلب المصالح، وأن الواجــب شــرعا في حال معين قد يكون محرما في حال آخر وفي ظــروف أخــرى، والرسول ﷺ قد حذر صحابته من التشدد في الأخذ بالأحكام، فلقد أخبروه أن صحابيا أصابته الجنابة واغتسل في شدة البرد فمات، ولما علم الرسول بذلك غضب غضبا شديدا وقال لهم: « **قتلتموه قتلكم الله. هلا سألتم إذا جهلتم إنما شفاء العي السؤال** » وهــو يقصد بذلك أنهم لم ينصحوه بالتيمم بدل الاغتسال لشدة البرد لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (١).
إن مبدأ رفع الحرج في الشريعة الإسلامية عام وشامل، وإن أولويات الأحكام الشرعية اعتبرها الشارع بحسب درجتها في تحقيق المصالح ودرء المفاســد ودفع الضرر. وإذا كان بعض المفتيين يرى ضرورة الاقــتداء بالرسول ﷺ في الرمي بعد الزوال فعليه أن يعلم أيضا أن الرســول ﷺ هو الذي قال: « **إن نفس المؤمن عند الله أشد حرمة عــند الله مــن حرمة الكعبة** »، وأن حفظ النفس مقصد كلي من مقاصــد الشريعة الإسلامية وفي مثل هذه الحالات لابد من الأخذ

(١) سورة البقرة: آية [١٩٥].

بفقه الأولويات، فإن الحفاظ على المقاصد الكلية للشريعة مقدم على غيره من السنن والمندوبات، وإذا علمنا أن تحديد وقت الرمي بهذه المدة الزمنية القصيرة قد يترتب عليه ضرر محقق يؤدي إلى إزهاق أرواح المسلمين فمن الواجب حينئذ اللجوء إلى البدائل المعتبرة شرعا وفلسفة الإسلام في رفع الحرج تفتح الباب للفتوى المنضطبة بروح الشرع ومقاصده، ومن المعلوم أن الوقوف بعرفة هو الركن الوحيد الذي إذا فات الحاج فقد فاتته الفريضة نفسها لقوله ﷺ : « **الحج عرفة** » فمن فاته الوقوف بعرفة فإنه فاته الحج، ولا يجزئ عن الوقوف بعرفة أي شيء غيره من الهدي أو الصيام، وفي الواجبات والمناسك الأخرى نجد متسعا من الهدي والفداء أو الصيام لما فاته شيء من النسك الأخرى إما لعجزه عنه أو لتقصيره فيه، ونسك الرمي مما يجزئ عنه الفدو المالي عند العجز عن القيام به سواء كان عجزا حقيقيا أو حكما، ويجوز في مثل هذه الضرورة الرمي بعد منتصف الليل (ليلة العيد) إلى منتصف الليلة التالية أخذا بمبدأ الضرورات تبيح المحظورات، وفي ذلك تحقيق للنسك ودفع للضرر المحقق ورفع للحرج عن المسلمين، كما يجوز للمفتي أن يعلن للشيخ العاجز أو المرأة التي لا محرم معها كأن كانت كبيرة أو المريض، ومن في حكمهم من الذين فقدوا الاستطاعة أن يفدوا ويقدموا دما، وفي



ذلـــك أيضـــا متسع لتحقيق النسك ودفع الضرر، وهذا كله اقتداء بهديه ﷺ فما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وما سئل عن شيء إلا قـــال: افعل ولا حرج، إننا بصدد مشكلة تحتاج إلى إعادة النظر في الفـــتوى التي تحقق مقاصد الشريعة وتدرأ المفسدة عن المسلمين، لقد كلفتني جامعة الملك عبد العزيز بجدة بالإسهام في نشاط مركز أبحاث الحج الذي كان تابعا لهذه الجامعة آنذاك في أوائل الثمانينات، وكـــان من بين أعمال اللجنة النظر في أمور الحج بصفة عامة وما ينـــبغي القيام به تيسيرا على المسلمين في أداء هذه الفريضة، وكان حرص المسئولين واضحا على النهوض بهذه المهمة.

وكان من بين الأمور التي اقترحتها على اللجنة ضرورة التفكير في مصير لحوم الأضحية التي تذبح في منى، حيث لا ينتفع بها المسلمون وتترك فترة طويلة من الزمن، حيث يصيبها العفن وهي أموال مهدرة لا ينتفع بها أحد، فلماذا لا يكون هناك مصانع لحفظ هذه اللحوم وتعبئتها وتوزيعهـــا على فقراء المسلمين في العالم، خاصة إذا علمنا أن المملكة العربية السعودية ليس فيها من الفقراء ما يستوعب هذه الكميات الهائلة من اللحوم، ولا يستفيد منها أحد، وإن الدولة تتكلف أموالا طائلة في الـــتخلص من هذه اللحوم بالإحراق حفاظا على البيئة من التلوث، أو تجمـــع الأمـــوال مـــن أصحابها بطريقة منظمة وتصرف في مصارفها

الشـــرعية كما يقرر ذلك الفقهاء، وارتفعت بعض الأصوات تعارض هذا الاقتراح محتجين بقوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١). كـــيف نفعـــل أمرا لم يفعله الرسول ﷺ هذا ابتداع في دين الله، إلى هذه الأقوال التي سمعناها من الـــبعض، والتي كان يحدوها الحرص التام على الاقتداء والاتباع لسنة رسول الله ﷺ ، ولكن ما إن شرح الله صدور المسئولين حتى تم تنفيذ هذا الاقتراح وتحققت به المصلحة للمسلمين، وتم به أداء النسك وهذا لا يتعارض أبدا مع هدي الرسول ﷺ ولا مع قاعدة رفع الحرج، إننا في حاجة ماسة في مثل هذه الحالات إلى فهم النصوص وليس حفظها، ونحن في حاجة إلى الأخذ بالأولى عند تعارض الواجبات، وفي شريعتنا الغراء من التيسير على المسلمين ما يسع ذلك كله.



(١) سورة الحج: آية [٣٧ ].



# ٩

# الإنسان وتجربة الابتلاء



إن المتأمل في كتاب الله تعالى وفي حديث القرآن عن الإنسان ووجوده ومصيره والمتسائل عن الحكمة الإلهية في وجود الإنسان وتحقيق عبوديته لخالقه يجد نفسه في مواجهة مباشرة أمام سؤال لابد من طرحه: لماذا خلق الله النفس الإنسانية على هذا النحو الذي لو خلاها وصاحبها لتحركت به حركة يلزم عنها الانحراف والمعصية.

وهذا السؤال هو الذي اعترضت به الملائكة على خلافة الإنسان في الأرض واختصاصه بذلك دون بقية الكائنات فقالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (١). والله سبحانه قد

(١) سورة البقرة: آية [٣٠].

خلق الإنسان كما أخبر في كتابه ﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝﴾ (١)، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولاً ۝﴾ (٢). والعجلة والهلع من لوازم الإنسان، ويلزم عنهما أمور قد يشوبها شيء من الشر، وإنما خلق الإنسان على هذه الحالة ليتحقق من خلقه معنى معين أشار إليه القرآن بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٍ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝﴾ (٣). فالآية الكريمة قد جسدت قضية الابتلاء في هذا الخلق العجيب ﴿مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٍ﴾ ثم أعقبت الخلق بهذا التعليل الذي يعبر عن حكمة الخلق وغايته ﴿ نَّبۡتَلِيهِ ﴾ ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾، وعند التـــأمل في التعبير القرآني الجامع ﴿ أَمۡشَاجٍ ﴾ يتضح لنا معان جليلة تضمنها هذا التعبير القرآني لابد من بيانه لما فيه من تجلية وتوضيح لقضية الابتلاء وأبعادها الغائبة عن عقل الإنسان، فإن لفظ أمشاج جمع على وزن أفعال ومفرده مشيج مثل خليط وأخلاط (مشيج وأمشاج) لفظا ومعنى، والخليط مركب من مجموعة من العناصر وليس عنصرًا واحدًا. وكذلك لفظ مشيج، وأمشاج جمع مثل أخلاط، وهو مركب من

(١) سورة المعارج : الآيات [١٩: ٢١].
(٢) سورة الإسراء: آية [١١].
(٣) سورة الإنسان: آية [٢].

عنصر أكثر وأكثر مما هو موجود في المفرد خليط ومشيج، لأن الجميع يتركب من عنصر أكثر مما يتركب منه المفرد.

وهذه العناصر قد اختلط فيها الجانب المادي الترابي الذي أكده القرآن وأشار إليه في أكثر من آية بالجانب الروحي الإلهي الذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (1).، فقد امتزج في البنية الإنسانية الجانب المادي والترابي بالنفخة الإلهية (وهي الجانب الروحي في الإنسان)، فتكون من المزج بين هذين الجانبين "الإنسان" ليكون محلا للصراع بين الجانب المادي وأوامره والجانب الروحي وأوامره، وهنا مكمن الداء وسر الابتلاء، وينبغي أن نعلم أن هذا المركب الإنساني ليس مادة وفقط، وليس روحًا فقط كما أنه ليس مادة وروح وكفى، وإنما هو مادة وروح وعناصر جديدة نتجت عن مزج الجانب المادي بالجانب الروحي في الإنسان، وهذه العناصر الجديدة لا سبيل للعقل البشري إلى معرفتها، لأنها ليست خاضعة لمقاييس الحواس لكنها تؤثر في حياة الإنسان إيجابًا وسلبًا، يعيش الإنسان أثرها في حياته وقد لا

---

(1) سورة ص : الآيات [٧١: ٧٢].

يحسن التعرف عليها ولا البرهنة على وجودها، وهي تمثل المناطق المظلمة في النفس البشرية التي هل محل الإعجاز الإلهي كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ ﴾ (١). ومما يقرب هذا البناء الإنساني العجيب إلى الفهم، أن تأخذ كوبا وتملأ نصفه ماء، ونصفه ترابًا، وتمزج أحدهما بالآخر فيتكون معك مركب جديد ليس هو الماء وليس هو التراب، لكن فيه من خصائص الماء وفيه من خصائص التراب، وفيه خصائص جديدة نتجت عن مزج الماء بالتراب والأمر كذلك بالنسبة للإنسان، إنه أمشاج ليس مادة خالصة، ولا روحًا خالصة، وليس مادة وروحًا فقط، بل هو مادة وروح وخصائص جديدة نتجت عن مزج أحدهما بالآخر، وهذه هي التسوية الإلهية التي عبر عنها القرآن بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ۝٢٩ ﴾ (٢). والإنسان مطالب بأن يعدل بين هذه الخصائص ومتطلباتها، ليكون إنسان سويا، فالله قد خلق الإنسان ليبتليه ليعرف كيف يحقق التوازن بين هذه الأوامر والرغبات التي يتصل بعضها بالمادة، ويتصل بعضها الآخر بالروح كما يتصل البعض. ثالثا

(١) سورة الذاريات: الآيات [٢٠: ٢١].

(٢) سورة الحجر: الآية [٢٩].

بالخصائص الجديدة التي نتجت عن مزج الجانب المادي بالجانب الروحي ليتكون منها هذا الكائن العجيب الإنسان، والابتلاء له مستلزمات وخصائص، كما أن له أشكالا ومظاهر، وهو أنواع ودرجات، ولقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة المهمة التي قد تفسر لنا هذا السر الغامض في كثير من آياته وفي مناسبات مختلفة، فهو خلق السماوات والأرض وما بينهما ليبتلي الإنسان بما فيهما من مظاهر النعمة والترف، لينظر الإنسان هل يحسن شكر النعمة أم يجحدها. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ (١).

ثم جعل تعاقب الليل والنهار وبناء الإنسان وتقلب نوعه بين الموت والحياة تحقيقا لمعنى الابتلاء ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (٢).

والله قد وهب الإنسان القدرة التي يستطيع بها أن يفعل الخير

(١) سورة هود: آية [٧].
(٢) سورة الملك: آية [٢].

كمـــا يستطيع أن يفعل الشر ليبتليه بذلك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [1].

والقـــرآن قـــد بين لنا أن الابتلاء كان - ولا يزال - هدفا مقصودا من كل ما ينـــزل بالعبد من ألوان القضاء وأحكامه، سواء كـــان للعـــبد أثر في ذلك أم لا. ولو علم العبد أنه لو خلى ونفسه وحـــرم العـــون الإلهي، فإنه بلا شك محكوم عليه بالفشل في تجربة الابتلاء، فيظل مشدود الوثاق بربه ملتجئا إليه طالبا عونه.

وما دامت الغاية من خلق الإنسان هي الابتلاء، فإن الله قد خلقه على نحو معين يتناسب مع تحقيق الهدف الذي خلق لأجله، وجعله على أفضل نحو من الوجود المناسب لتحقيق هذا الهدف. فلم يشأ أن يجعله ملكا لا علاقة لـــه بالمادة، ولم يشأ أن يجعله مادة خالصة لا روح فيها، بل قضى الله سبحانه وتعالى أن يجعله مزيجا من العالمين الروحي والمادي، وزاوج بينهما في وجوده الحسي لأن هذا هو أفضل نحو من الوجود المناسب لتحقيق معنى الابتلاء، وامتزاج المادة والروح في الإنسان جعل حياة الإنسان صالحة

(١) سورة الأنبياء: آية [٢٥].

للابتلاء بما يشاء الله، وكانت حياة الإنسان نوعا من التفاعل والصراع بين مطالب المادة ومطالب الروح، وقد انعكس أثر هذا الصراع على سلوك الإنسان الفرد وعلى علاقته بالله والناس، في كل هذا يتحقق نوع معين من أنواع الابتلاء، حيث يسعى كل جانب من المادة أو الروح إلى تحقيق سيطرته على اتجاهات الإنسان في سلوكه وعلاقته بغيره، فتكون معاملته مع الناس ومع الله تلبية لمطالب جانب معين منهما حسب قوته في التأثير والغلبة قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾ (١)، فهل يتجه الإنسان إلى إشباع جانبه المادي أو الروحي، هل يرقى بنفسه أو يتسفل بها، هل يشكر أم يكفر، وتفاوت حياة الناس بين الفقر والغني والصحة والمرض، والرفعة والخسة يهدف إلى تحقيق معنى الابتلاء، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝﴾ (٢). ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ

(١) سورة الكهف: آية [٧].

(٢) سورة الأنعام: آية [٥٣].

رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [يونس: آية ١٤].

والله سبحانه كان - ولا يزال - قادرا على أن يجعل الناس كلهم أمة واحدة على الإسلام، أو على الصحة والغنى، والجاه والرياسة، ولكن شاء الله أن يجعلهم كذلك أنواعا وفئات تتفاوت فيما بينها بين الفقر والغنى، والصحة والمرض، والعلم والجهل ليحقق فيهم معنى الابتلاء قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة: آية ٤٨]، جعلهم كذلك ليبلو بعضهم ببعض، وكما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان ٢٠] وكما قال سبحانه: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: آية: ٣٢].

بل إن إخباره عن بعض غيوبه ليعلم بذلك من يؤمن بها ويصدق ممن يكفر ويجحد بالله، كان يقصد به تحقيق معنى الابتلاء: قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴿٣١﴾ [1]، فالله سبحانه وتعالى جعل الإيمان بالغيب وما وراء المادة موضوع الابتلاء. ابتلاء للعقول والأفهام ليميز بين المؤمن منها والمنكر، وكما جعل سبحانه تفاوت البشر في حظوظهم من الدنيا، وتفاوتهم بين الفقر والغنى محلا للابتلاء جعل سبحانه قضايا الغيب ابتلاء للعقول ليجمع على الإنسان بين ابتلاء البدن وابتلاء العقل، فالراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وكما قال سبحانه: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ فأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا، وأما المؤمنون فيزدادوا إيمانا مع إيمانهم، ولذلك كان الإيمان بالغيب والتسليم به أكثر دلائل الإيمان وأظهرها وضوحًا على وجه المؤمن كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [2]، ولو أخذت أسطر هنا ما جاء في القرآن حول قضية الابتلاء للإنسان بكل ما في الكون من مظاهر الحياة وبحياة الإنسان نفسه لخرجت

(١) سورة المدثر: آية [٣١].
(٢) سورة البقرة: الآيتان [٢، ٣].

في ذلك عن حد القصد، ولكن يكفي أن أشير إلى أن القرآن قد لفت أنظارنا في غير موضع وفي غير مناسبة إلى أن الإنسان خلق للابتلاء، وينبغي ألا ينظر إلى معنى الابتلاء نظرة تشاؤمية لأن العكس هو الصحيح، فإن الله ما أجرى على عبده قضاءه إلا ليرفع به درجة أو يحط عنه به سيئة، وليست كل أنواع الابتلاء تكون بالآلام أو الأمراض. بل قد يبتلى الله بالصحة كما يبتلي بالمرض ويبتلي بالغنى كما يبتلي بالفقر، ويبتلي بالجاه والسلطة كما يبتلي بأضدادها، وفي الأثر: إن من عبادي من لا يصلح حاله إلا الغنى، ولو أفقرته لفسد حاله، وإن من عبادي من لا يصلح حاله إلا الفقر، ولو أغنيته لفسد حاله، فالله يعطي كل عبد ما يناسب تجربته في الابتلاء ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [1].

وينـــبغي أن يعلم هنا أن الله لا يبتدئ عباده بالابتلاء، وإنما يبتـــدئهم بالفضل والإحسان، فالوجود خير من العدم وحفظ الحياة والهدايـــة بالرسل والكتب وحسن الخلقة والصورة، كل ذلك فضل

(١) سورة الفجر: الآيتان [١٥، ١٦].



منه ونعمة ولكنه في الوقت نفسه يهب الإنسان هذا العطاء بدون سبب تقـــدم به العبد بين يدي ربه ويقصد به معنى من معاني الابتلاء ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ ﴾ (١)، فهذا قانون عام يحدد علاقة الله بعباده، وهو سبحانه لا يزيد العبد إلا بما هو خير له وصلاح لأمره.

وهـــذا الـــنوع من القضاء الذي يحدث فيه نوع من المشاركة بفعـــل الإنسان يكون فعل الإنسان نفسه مقدمة وسببا مهيئا لنـــزول القضـــاء الإلهي به، وما جرى به القضاء هو النتيجة التي يسببها فعل الإنسان، فالإنسان الذي يعرض نفسه لأسباب المرض عليه أن ينتظر حلول المرض، والطالب الذي لا يذاكر ينبغي ألا يمني نفسه بالنجاح، والأمـــم التي لا تأخذ بأسباب التقدم والنهضة لابد أن تحصد النتائج تبعـــية وتخلفا وفقرا، وهكذا تسير سنن الله في كونه باطراد وثبات لا تتخلف النتائج عن أسبابها، فالإنسان هو الذي لا يقدم الأسباب بفعله وســـلوكه وسيرته، فإن كانت الأسباب حسنة وخيرة كانت نتائجها كذلك، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، وإن كانت الأسباب سيئة وسلبية فمن البلاهة والغفلة أن ينتظر غير ما قدمت يداه.

---

(١) سورة إبراهيم: آية [٧].

وكذلك الأمر في مسائل الهداية والضلال، والإيمان والكفر والطاعة والمعصية، فمن سلك سبيل الهدى والطاعة تفضل الله عليه بعونه ومدده، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ ﴾ (1)، وكما قال تعالى: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ ﴾ (2)، ولم نقرأ في القرآن الكريم أن الله تعالى أضل مؤمنا، أو طبع على قلب مهتدي، وإنما أضل الكافر والفاسق وطبع على قلب الكافر والعاصي، وهذا هو العدل الإلهي الذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝ ﴾ (3)، ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ۝ ﴾ (4)، فمن أعرض عن الهداية لا يستحق أن يحظى بالفضل الإلهي أو يختصه الله به، بل يكون إعراضه عن الهداية سببا مرجحا لمنع الفضل الإلهي عنه، ويكون إعراض العبد عن ربه هو السبب فيما حل به من ألوان القضاء، والله لا يظلم الناس شيئا ولكن

---

(1) سورة العنكبوت: آية [69].
(2) سورة المائدة: آية [16].
(3) سورة القلم: آية [35].
(4) سورة ص: آية [28].

الناس أنفسهم يظلمون.

وقد ظن بعض الناس خطأ أن الله لو جاز أن يختص أحدًا من خلقه بفضله دون البعض فقد حابى ذلك المخلوق وظلم الآخرين، لأن العدل الإلهي عندهم يقتضي التسوية بين العباد في كل شيء، وهذا خطأ في فهم أفعال الله في عباده وموقع أفعال العباد من قضاء الله في عباده، ولا شك أن الله قد سوى بين جميع خلقه ابتداء في الهداية العامة حيث وهب جميع عباده العقل وأرسل الرسل وأنزل الكتب إلى جميع عباده ولم يختص بذلك أحدا دون الآخر والاختلاف في عطاء الله لعباده بين الهداية والضلال، والطاعة والمعصية، إنما حصل بين الناس لأن بعضهم فضل الهداية، وبعضهم فضل الغواية، والعقل والمنطق يقرر أن السوية بين هذين النوعين ظلم لأنها تسوية بين المختلفين، والتسوية في الفضل والنعمة لا تكون إلا بين متماثلين لامختلفين، والقضاء قد جرى بأن من أعرض عن ذكري ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ١٢٥ ﴾[1]، وجرى أيضا بأن ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ٧٦ ﴾[2] ،

(١) سورة طه: آية [١٢٥].

(٢) سورة مريم: آية [٧٦].

والله يقـــول: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [1]، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ ﴾ [2]، ولا يصح في منطق العقل أن يماثل الله بين الطائع والعاصي، فلا يماثل بـــين المخـــتلفين كما لا يفرق بين المتماثلين، والظلم إنما يتصور لو أجـــبر الله العبد على المعصية وحمله عليها كرها، ولكن القضاء إنما ســـجل اختيار العبد للمعصية حينما شرع في الأخذ بأسبابها، وقد كان في مقدوره ألا يشرع في الأخذ بها وأن يأخذ بأسباب الهداية.



(١) سورة الصف: آية [٥].
(٢) سورة الليل: الآيتان [٦، ٧].

# ١٠

# معنى الحسنة في كتاب الله

لقد استدل المعتزلة على رأيهم في أن الله لا يقضي المعصية على العبد بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ (١).

وظنوا أن الحسنة والسيئة في الآية المذكورة المراد بها الطاعة والمعصية، فتكون الحسنة من الله خلقا وقضاء والسيئة من العبد خلقا وقضاء، وقالوا: لو قضى الله السيئة على العبد لكان الله شريرًا يريد الشر بعباده، والله تعالى منزه عن ذلك... فوجب ألا يتعلق القضاء إلا بالحسنة فقط. كما احتج الأشاعرة بالآية نفسها على أن الطاعة والمعصية من الله خلقا وإيجادا وليس للعبد أثر في كل ما يأتيه من طاعة أو معية، وقد أخطأ الفريقان في الآية من وجهين:

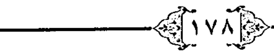
(١) سورة النساء : الآية [٧٩].

**الوجه الأول:** أنهم فسروا الحسنة والسيئة في الآية بالطاعة والمعصية، وليس الأمر كذلك. بل المراد بالحسنة والسيئة هنا النعم والمصائب التي تصيب العباد ولا دخل لهم فيها ، ولفظ الحسنة والسيئة قد استعمل القرآن كلا منهما في النعم والمصائب كثيرا قال تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾(1). ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾(2). ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾(3). فلفظ الحسنة والسيئة في كل هذه الآيات يراد به النعم والمصائب التي تنـزل بالعباد كالنماء في الزرع والسعة في الرزق والصحة والولد. أو القحط والفقر والمرض. وورد لفظ الحسنة والسيئة في القرآن الكريم يراد به أحيانا الطاعة والمعصية التي تقع من العبد، ويراد به أحيانا أخرى النعم والمصائب التي تقع على العباد من متعلقات القضاء الكوني، وحين يستعملها القرآن للدلالة على

(1) سورة آل عمران: الآية [120].
(2) سورة التوبة: الآية [50].
(3) سورة الأعراف: الآية [131].

الطاعة والمعصية (من أفعال العباد) يستعمل بها لفظ من "جاء بالحسنة"، من كسب سيئة ليدل على أن الفعل واقع من الإنسان بإرادته وحريته، وإذا أراد بها القرآن الدلالة على النعم والمصائب فإنه يستعمل معها لفظ: "ما أصابك من حسنة" و"ما أصابكم من مصيبة" ليدل على أن الفعل واقع على الإنسان وليس واقعا منه لأن الفعل (أصاب) يدل على أن الإنسان محل للفعل، منفعل به وليس فاعلا له ولا مسئولا عنه بخلاف لفظ (جاء وكسب) التي استعملها القرآن مع الحسنة والسيئة حين أراد بها الطاعة والمعصية لأن الفرق كبير بين المعنيين فلفظ أصاب ويصيب يدل على أن الفعل الواقع على الإنسان من متعلقات القضاء الكوني العام المحيط بالكون وما فيه والذي عبر عنه سلف الأمة بأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وفي ضوء هذا المعنى فهم السلف قوله تعالى: ما أصابك من حسنة فمن الله، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وما أصابكم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فبإذن الله... إلخ ، وهذه كلها آيات تدل على متعلقات القضاء الكوني الذي لا يصح الاحتجاج به على المعصية.

ولفظ (جاء وكسب) إذا اقترن بالحسنة والسيئة يدل على أن الحسنة والسيئة واقعة من الإنسان بإرادته وحريته، ولذلك يسأل



عـــنها يوم القيامة، ولا يجوز استعمال أحد المعنيين مكان الآخر أو الاستدلال بآية مكان أخرى لأن ذلك يؤدي إلى اضطراب في الفهم وخلـــل في تحديـــد موقـــف الإنسان من مسئوليته عن أفعاله على مستوى الفرد والمجتمع.

وهذا الخلل قد يقع فيه كل من المعتزلة والأشاعرة على سواء حيث استدل كل منهما على مذهبه بما يخالف معنى الآية في سياق داخل النص، والآية التي يستدل بها الطرفان لفظ الحسنة والسيئة فيها يراد به نزول المطر ونماء الزرع وما جاء على شاكلته من القضاء الكوني الذي يصيب المرء بدون اختياره، ولذلك نجد القرآن قد عبر عن ذلك بقوله: ﴿ وَإِن تُصِبْكَ ﴾ و ﴿ تُصِبْكُمْ ﴾ ليشعر أن الذي أصاب المرء من ذلك بغير اختياره وهذا يخالف ورود الحسنة والسيئة بمعنى الطاعة والمعصية فإن القرآن قد عبر عنها بألفاظ تدل على الاختيار والإرادة من العبد، قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾[1].

فالحسنات والسيئات هنا هي الطاعة والمعصية من أفعال العباد المـــتعلقة باختيارهم وإرادتهم، ولذلك كان تعبير القرآن عنها بلفظ

(١) سورة الأنعام : الآية [١٦٠].

(من جاء) الذي يشعر بالاختيار والإرادة.

**الوجـــه الثاني:** أن القرآن قد فرق في هذه الآية بين الحسنة والســـيئة، فجعل الحسنة من الله والسيئة من العبد، وهذا ينقض ما ذهب إليه الفريقان، فالمعتزلة جعلوا الحسنة والسيئة كلاهما من العبد بـــدون تفريق بينهما، والأشاعرة جعلوا الحسنة والسيئة كليهما من الله بـــدون تفريق بينهما، فالآية ليست حجة للمعتزلة ولا للأشاعرة بل هي حجة على الطرفين فيما يذهب إليه.

وسبب نزول الآية يوضح لنا أن الحسنة والسيئة في الآية يراد بهما النعم والمصائب وليس الطاعة والمعصية. فلقد روى أن جماعة من المنافقين نكصوا عن الخروج للجهاد مع رسول الله ﷺ هربا من لقاء العدو وحذرا من الموت فنـــزل في حقهم عدة آيات من سورة النساء تكشف موقفهم للرسول وتبين لهم أنهم لن ينفعهم الفرار من الموت أو القتل قال تعالى: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾** ﴾[1]. ثم أخذت

---

(١) النساء: ٧٨.

الآيات تكشف عن أحوال هؤلاء المنافقين فقد كانوا إذا نزل بهم مطر أنبت زرعهم وأجرى ضرعهم ووسع رزقهم أو حل بهم ما يسر، قالوا: إن هذا من الله، وإذا حلت بهم سنون عجاف، فلا مطر ولا زرع ولا ضرع قالوا هذا من شؤم محمد وشؤم دينه. فنـــزلت الآيات تقول: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴿٧٨﴾ ﴾ فإن ما ينـــزل بهم من خير أو ضر هو من عند الله وليس من شؤم محمد ولا دين محمد.

ثم أخذت الآية تخاطب الرسول ﷺ باعتباره قائد الركب فإذا كـــان الحكم يجري عليه بما تنطق به الآية، فإنه يجري على غيره من بـــاب أولى. قـــال تعـــالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾، لأن الإنســـان هو الذي يتسبب فـــيما يحل به من ألوان الضر وصنوف الكرب،وإذا كان ما ينـــزل بالرســـول ﷺ من السيئات فمن نفسه فغيره من هؤلاء أولى. وهذا يبين لهم أن الذي حل بهم من سنين عجاف لم يكن ظلما أو عبثا، وإنمـــا كان ذلك ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ لـــيظهر من صدق الله في إيمانه ممن يعبد الله على حرف، فالآيـــة نزلت في واقعة معينة ليكشف للمنافقين أن ما يصيبهم من

النعم والمصائب هي من عند الله وليست من عند محمد، وأن محمدا نفسه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ثم وضحت الآيات بعد ذلك أن الحسـنة من الله فضلا وإحسانا وأن السيئة كانت منه عدلا وحسابا، فهي لم تقع منه ابتداء بل كانت عقوبة منه على فعل سابق من العبد كما قال سبحانه ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴿٤٠﴾ ﴾ (1).

وإذا كان هذا هو شان الله مع العبد في النعم والمصائب، فإن القرآن قد وضح لنا أن المعصية إذا وقعت من العبد، فليس ذلك إلا مـن فعـل نفسـه ولسبب تقدم به العبد يكون مستلزما لها، لأن الإنسـان لا يشـتغل قلبه بالمعصية إلا إذا كان فارغًا من الاشتغال بالطاعـة والهداية، وكون القلب فارغًا من معنى الطاعة والهداية يعد معصية لكنها معصية عدمية يستحق العقوبة عليها لأن فراغ القلب مـن الاشتغال بالطاعة جعله مهيأ للاشتغال بالمعصية، فيجيء فعله المعصـية نتـيجة لازمة لفراغ قلبه من الاشتغال بالهداية، وفي نفس الوقت تكون المعصية عقوبة على تركه الاشتغال بأسباب الهداية فتكون من الجزاء السيئ على العمل السيئ وذلك كما قال سبحانه: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ

(1) انظر تفسير ابن تيمية ١٤/ ١٣٢- ٢٣٦، رسالة الحسنة والسيئة ٢٠ شفاء العليل لابن القيم ٢٢١- ٢٢٤. سورة الشورى: الآية [٤٠].



سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾، وكذلك الحسنة فإنها تكون من العبد جزاء وفاقا وهـو نعمة الله للعبد ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[1]، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾[2]. فالطاعـة مـن الله والمعصية من العبد، وكلما ازداد العبد تقربا إلى الله يزيده الله من أنواع هـذا الجزاء الدنيوي بفعل الطاعة الذي هو مقدمة للجزاء الأخروي بالجـنة، وكذلك كلما يزداد المرء بعدا عن الله تزداد لـه العقوبة من ارتكاب المعاصي ليكون ذلك مقدمة للعقاب الأخروي بالنار. فالجزاء من جنس العمل.

وحـين يهمل المرء نفسه فلا يشتغل بما ينفع ويصلح نفسه فإن الجزاء العدل من الله هو الإهمال ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[3]. فـإن الـنفس إذا أصبحت خالية من أسباب الهداية لابد أن تشتغل بأسـباب المعاصـي، لأنها إذا لم تشتغل بما ينفع فلابد أن تشتغل بما يضـر، وهذا من طبيعة كونها نفسا وعقوبة الله للعبد في الآخرة إنما تكون على فعل السيئات التي ارتكبها في الدنيا، وفعل العبد للسيئات كـان عقوبة لـه في الدنيا على إهماله الأخذ بأسباب الهداية وتركه

---

(١) سورة مريم: الآية [٧٦].
(٢) سورة المائدة: الآية [١٦].
(٣) سورة الحشر: الآية[١٩].

فعل الواجبات فيكون قد اجتمع على العبد نوعان من العقوبة:

١- نوع وقع منه في الدنيا، وهو ارتكاب المعصية، وهو باختياره وذلك لفراغ قلبه عن الاشتغال بالطاعة.

٢-نــوع وقــع بــه في الآخرة وهو عقاب الله لــه على فعل السـيئات، وكــلا النوعين إنما وقعا بسبب تركه الاهتداء بما هــداه الله به. لأن الله قد هداه فلم يهتد ولهذا كان ﷺ كثيرا مــا يتعوذ من شر النفس بقوله :"**نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**"[1].

ويقــع المعتزلة في خطأ آخر حين يقولون: لو جاز أن يقضي الله الشــر أو المعصــية لكان شريرًا، لأنه لا شك أن الله خالق كل شــيء وكل ما وقع في الأرض فإن الله قد قضاه كونا وإيجادا سواء في ذلك الطاعة والمعصية، الإيمان والكفر. والله تعالى قد خلق الأكل والشــرب والمشي في العباد وقدره عليهم،وقضاه قضاء كونيا،ولا يصــح أن يقال أنه تعالى آكل وشارب وماش، لأنه قد فعله الأكل والشرب والمشي فليس يتصف سبحانه بما خلق من عباده بل يتصف

(١) ورد الحديــث في نص خطبة الوداع لرسول الله ﷺ . انظر ابن حنبل ٥/ ٢٧١ دار المعارف.

بما خلقه هو من أفعال نفسه، وهنا يجب التفرقة بين نوعين من الأفعال التالية:

١- **النوع الأول**: فعل مخلوق لله، منفصل عنه، قائم بمخلوقاته، وذلك كالأكل والشرب والمشي والطاعة والمعصية وغيرها. فإن هذه الأفعال مخلوقة ومقدرة ومقضية لله، ولا يلزم من خلقه لها اتصافه بها. بل يتصف بها من قامت به ومن فعلها بقدرته واختياره وهو العبد.

٢- **النوع الثاني**: نفس فعله تعالى القائم به كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة فالأول مفعول له منفصل عنه، والثاني فعل له قائم به والأول يتصف به من وقع منه الفعل وقام به، وليس من قضاءه عليه وقدره له وخلقه والثاني يتصف به من فعله وقام به. فيقال هو المحيي المميت ولا يقال هو الآكل الشارب.

والتفرقة هنا ضرورية بين نفس فعله القائم به ومفعوله القائم بغيره، وعدم التفرقة بين هذين النوعين من الأفعال قد أوقع المعتزلة في لبس حيث ظنوا أن كل ما خلقه الله وقضاه يصح أن يوصف به، وهذا خطأ كبير، لأن الله لا يوصف بأفعال عباده وإن كان قد قضاها عليهم وإنما يوصف بفعل نفسه القائم به.





# الحسنة من الله والسيئة من العبد

ومهمـــا يكـــن من شيء فالحسنة تنسب إلى الله تعالى سواء فسرناها بالعمل الصالح أو بالنعمة والرخاء، والسيئة تنسب إلى العبد لأنهـــا كانت بسببه، ولما صح أنه السبب في وقوعها وإحداثها صح نســـبتها إلـــيه، كما في الآية الكريمة سواء كانت السيئة معصية أم كانت من قبيل المحن والمصائب، فإن العبد هو السبب فيها وإذا كان الله قـــد قضاها وكتبها فليس في ذلك جبر ولا إلزام للعبد بها، وإنما هـــو تسجيل لما يقع منه بناء على العلم السابق بما سيفعله العبد من أسباب تؤدي إليها.

والآية السابقة توقفنا على سؤال لابد منه وهو. إذا كانت الطاعة والمعصية أو النعم والمصائب مقدرة فلماذا فرق الله بينهما فأسند الحسنة إليه سبحانه، وأسند السيئة إلى نفس العبد مع أن الجميع بقضاء الله.

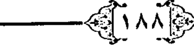
هـــل لأن الإنسان هو السبب في نزول المصائب به أو لأنه ارتكب المعصية باختياره فأسندت إليه؟ ولكن هل أثر الإنسان يعد سببا تاما في ذلك حتى تتوقف عليه النتيجة من جميع وجوهها؟



من المعلوم أن إحسان الله إلى عباده يقع منه سبحانه بلا سبب تقـــدم من العبد بل يحسن الله إليهم ابتداء بالخلق والرزق والصحة وتهيئة أسباب الهداية للعباد وينصبها لهم بلا سبب تقدم منهم، فالله سبحانه يبدأ علاقته بالعبد بالإحسان والفضل إليه وينتظر من العبد مـــا يقوم به إزاء هذه النعم، فلئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد، والسيئة إذا وقعت من العبد فإنها لا تكون إلا لفراغ قلبه من معنى الحسنة كما سبق، وإذا حصل ذلك فإن علاقته بربه لا تكون في مرتبة الشكر على النعمة، بل تكون في مرتبة كفران النعمة ولكـــل مرتـــبة جزاؤها المناسب لها. وهناك فروق حاسمة في نسبة الحسنة إلى الله والسيئة إلى العبد.

**أولا:** إن الحسنة إذا وقعت من العبد، فالسبب الرئيسي فيها هو الله سبحانه وتعالى لأن الله قد هداه إليها أولا، ومنحه أسباب التعرف عليها من العقل والشرع. فالله هو الذي خلق فسوى وقدر فهدى وهو الذي ألهم النفوس تقواها، كما قال أهل الجنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴿٤٣﴾﴾ (1)، فجميع ما يتقلب فيه العبد هو من فضل الله وإحسانه إليه بدون سبب سابق يوجب للعبد حقا على الله

(١) سورة الأعراف: الآية [٤٣].

بخلاف السيئة، فإنها لا تكون إلا لذنب سبق من العبد وأول هذه الذنوب فراغ القلب من الاشتغال بالطاعة، وهذه من الأمور الدقيقة التي يجب التنبه إليها، وهي لا تكون إلا من العبد وهي ذنب عدمي نتج عنه ذنب وجودي هو اشتغال القلب بالمعصية بعد فراغه من الاشتغال بالطاعة. وإذا تدبر الإنسان ذلك علم أن ما به من نعمة فمن الله وما به من سيئة فمن نفسه، فيشكر الله على النعمة ويستغفره على المعصية، فيزيده الله هدى ويبدل سيئاته حسنات، ويكون العبد في حياته متقلبا بين شكر الله على نعمائه واستغفاره من معاصيه. وهذه هي حياة المؤمن أن يحيا لله، ويحب لله، ويبغض لله، والآية الكريمة إذا كانت جمعت بين الحسنة والسيئة في قوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [1] فإن ذلك ليعلم المؤمن أن الكل لا يخرج عن قضاء الله الكوني، ولكنه فرق بينهما حيث نسب السيئة إلى النفس لينبه إلى هذا الفرق الدقيق وهو أن السيئة لا تكون إلا من نفس الإنسان ولسبب فراغها من معنى الهداية.

**ثانيا:** أن الحسنة يضاعفها الله للعبد إلى سبعمائة ضعف. ويثيب على الهموم والعزم عليها، حتى وإن لم يفعلها العبد بخلاف

(١) سورة النساء: الآية [٧٨].

السيئة فلا يضاعفها ولا يعاقب على الهم بها، ويمحوها بالتوبة، وبالمصائب المكفرة وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (١) فكانت الحسنة أولى بأن تضاف إليه سبحانه والسيئة أولى أن تضاف إلى النفس.

**ثالثا:** أن الحسنة لا يوجد وجه من وجوه تحققها في الخارج إلا ويصح إضافته إلى الله تعالى، فهو محسن بها من كل وجه بخلاف السيئة فإنها تقع من العبد والله كاره لها غير راض عنها، كما أن النعمة إذا وقعت فهي من إحسان الله إلى العبد أما المعصية فلا تكون إلا لسبب تقدم من العبد ويخلقها الله لحكمة.

وهي باعتبار تلك الحكمة خير، وباعتبار سببها السابق من العبد عدل. وهذان الوجهان هما جهة تعلق القضاء بالسيئة أو المعصية، والسيئة باعتبار هاتين الجهتين خير لا شر فيها، لأنها تقدمها سببها الموجب لها من العبد فصارت لأجله عدلا والعدل خير لا شر فيه. كما أن القضاء لا يتعلق بشيء إلا لحكمة وتحقيق الحكمة خير لا شر فيه. وإذا كان فيها شر يصيب العبد فهو شر جزئي إضافي لا ينسب إلى الله، وإنما ينسب إلى العلة الفاعلة، وهي نفس العبد، فهي التي أغوت بفعل المعصية وهي التي تتألم بعقابها، ومن هنا كان ﷺ يقول في دعائه: « **الخير بيديك والشر ليس**

(١) سورة هود: الآية [١١٤].

**إلـــيك »**[1]. والســـيئة تضاف إلى النفس لأنها قد فعلتها لا لحكمة ولا لغرض ينفع، و لم يقصد العبد من فعل السيئة خيرا.

**رابعـــا:** أن الحسنة التي يفعلها العبد أمر وجودي يصح إضافته إلى الله، وإتيان العبد لها يدل على معنى وجودي، قائم بالنفس، وهـــو إيمانه بها وحبه لها واشتغال نفسه بطلبها، لأن الحسنة فعـــل مـــأمور به، أو ترك محظور منهي عنه، وترك الإنسان للســـيئات إنما حصل لمعرفته بأنها سيئة وأنها سبب البلاء في الدنيا والعقاب في الآخرة، فيقوم في نفسه معنى وجودي هو بغضـــه لهـــا وكراهته فتنشغل نفسه عنها. كما أن معرفته بالحســـنات كالعدل والصدق وغير ذلك يكون أيضا لأمور وجوديـــة قائمة بالنفس هي محبة ذلك وطلبه الاشتغال به، ولهذا فإن الإنسان يثاب على ترك السيئات إذا تركها كارها لهـــا كافا نفسه عنها. وهذا هو المعنى الوجودي الذي يثيب الله العبد عليه إذا قام بنفسه، أما مجرد ترك السيئات من غير معـــرفة بهـــا ولا كراهة لها كأن لم يخطر على قلبه أنها سيئة محظورة فلا يثاب على هذا الترك، وإن كان يحمد على ذلك في الدنـــيا، وتكون السيئة في حقه كالطفل الذي لم يقم في

(١) ورد الحديـــث في ابـــن حنـــبل ٢/ ١٢٤ دار المعارف و (مسلم) كتاب صلاة المسافرين ٢/ ١٨٥.

نفسه معنى وجودي يحمله على الكف عن القبائح، وكذلك فعـل الحسـنات، فإن المرء لا يثاب على فعلها إلا إذا كان ذلـك لمعنى وجودي قائم بالنفس يحمله على فعلها حبا فيها وطلـبا لها وامتثالا للأمر الإلهي بها، أما لو فعلها بدون هذه القصـود وتلك المعاني فإنه لا يثاب عليها، وهذا يؤكد لنا دور النـية وأهميتها في إحداث الفعل، كما قال ﷺ « **إنمـا الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى** » وهذا بالتالي يضع لنا الحدود الفاصلة بين فعل العبد رياء وسمعة وبين فعله لله، فالله لا يثيب ولا يعاقب إلا على المعنى الوجودي القائم بالنفس، أمـا مجرد الفعل أو الترك بغير قيام هذه المعاني في النفس التي تدعو إلى الفعل أو الترك، فهذا لا يثاب عليه ولا يعاقب.

والإنسـان لا يفعـل السيئة إلا لجهله بعواقبها أو طغيان عامل الشهوة والهوى على عامل الإيمان والهدى، ولو قام في النفس العلم النافع بضـرر السـيئة ونفع الحسنة لقضت النفس بفعل الحسنة وترك السيئة فيكون كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ ﴿٢٨﴾﴾ [1]. لأن العلم بعواقب الأمور هو الذي يحمل النفس على محبة الحسن وفعله وكـراهة القبيح وتركه. ولكن النفوس لما كانت حية متحركة ومتحولة فإن سعادتها بتحركها نحو ما ينفع، فإذا اهتدت بهدي الله وعرفت الحق

(١) سورة فاطر: الآية [٢٨].



وتحركت نحوه فذلك هو المعنى الوجودي الذي يثاب عليه، ولكنها إذا لم تمتد، ولم تعرف الحق فذلك أمر عدمي. هو فراغ النفس من معنى الهداية، وهذا الأمر العدمي لا ينسب إلى الله حتى يقال إن الله فاعل السيئة بالعبد أو جبره عليها، وإنما ينسب إلى النفس لإهمالها وعدم اشتغالها بأسباب الهداية التي منحها الله لها، وهذا تولد عنه فعل السيئات كما سبق. ومن هنا صح نسبة السيئة إلى النفس من كل وجه.

**خامسًا:** أن ما يجري به القضاء على العبد من الذنوب الوجودية كارتكاب الموبقات والفواحش، فإن ذلك يكون عقوبة للعبد على ترك الحسنات التي خلق لأجلها وفطر على محبتها، فلما لم يفعلها - وهو مخلوق لأجلها - عاقبه الله بأن زين له الشيطان فعل السيئات فكان تسليط الشيطان عليه وتزيينه له فعل السيئات هو معنى إلهام الله هذه النفوس فجورها، وكل هذا يرجع إلى عدم الاهتداء وهذا لا ينسب إلى الله حتى يقال إن الله فاعله بل هو من ظلم النفوس لأصحابها، وهذا الموقف يتضمن أمرين:

**الأمر الأول:** ظلم النفس صاحبها بعدم الاهتداء وعدم فعل الحسنات، وهذا لا يصح نسبته إلى الله، لأن الله قدر فهدى.

**الأمر الثاني:** ظلم النفس صاحبها بفعل السيئات وهذا من فعل العبد باختياره، فلا ينسب إلى الله، ومن تأمل آيات القرآن الكريم تبين له



أن ما يذكره الله في خلق المعصية أو الكفر يجعله عقابا للعبد على ذنب تقدم، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (١)، ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (٢)، وهذا قد ورد في القرآن كثيرا.

وإذا فهمت هذه القضية حق فهمها، فإنها تبطل كلام الأشاعرة الذين يقولون إن الله يخلق الكفر والمعصية ويعاقب عليها لا لسبب ولا لحكمة. كما تبطل رأي المعتزلة الذين يقولون: إن العبد يخلق أفعاله بقدرته المستقلة عن قدرة الله، كما تبطل قولهم بأن المعصية تقع من العبد دون أن يقضي الله بها ولا يتعلق بها القضاء الإلهي.

**سادسًا**: إن السيئة خبيثة لا تحل إلا بالنفوس الخبيثة والنفس الخبيثة لا يناسبها ولا يحل فيها إلا العمل الخبيث.

والنفس لما أعرضت عن هدي ربها واشتغلت بفعل ما يكره كان خلق الطاعة فيها - بعد ما ضلت - وضع للشيء في غير موضعه اللائق به. وهذا ظلم، كما أن خلق السيئة في النفوس التي اهتدت وأذعنت لربها وضع للشيء في غير موضعه وهو ظلم أيضا.

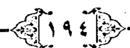
فيجب أن ينزه الله عن هذا وذاك. فمن أراد أن يجعل

(١) سورة الصف: الآية [٥].
(٢) سورة الليل: الآيات [٨: ١٠].

الجـــاهل معـــلما للـــناس إماما لهم، وأن يجعل الجبان العاجز قائدا للجـــيوش إماما فيهم، فقد وضع الأمور في غير موضعها اللائق بها، ويكـــون بذلك قد ظلم القائد والرعية معا، وبهذه الفروق يتضح لنا أن الحســـنة من الله والسيئة من النفس، وأنه لا حجة فيها للمعتزلة ولا للأشاعرة على سواء [1].



(١) انظـــر في ذلك: رسالة الإرادة والأمر لابن تيمية، تفسير ابن تيمية ٢ / ٢٦٥-٣١٤ الحسنة والسيئة ٤٠ -١٠١، شفاء العليل ٢٣٥ - ٢٣٧.



# ١١

# معانى الهدايـة فى كتاب الله

يسبق إلى أفهام كثير من الناس أن الله سبحانه وتعالى لو اختص بعـض عباده بأنواع من الفضل ابتداء منه سبحانه أو لسبب تقدم به العـبد بين يدي ربه فقد حرم غيرهم من هذا الفضل ومنعهم حقا من حقوقهم. فإذا اختار نبيا ليبلغ عنه دعوته إلى عباده فيعترض عليه البعض قائلا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (١) وإذا اخـتص بعض عباده بأنواع من رحمته كالهداية مثلاً، فقد يحتج بعـض الناس بأن الله منع الهدى عنه واختص بها غيره، وكأن الله إذا هـدى أحدا فقد أضل غيره عن سبيل الهدى؛ وهذا مصدر خطأ كبير في فهم مسألة سبق القضاء الإلهي بالهداية والضلال، والقرآن يوضح لنا أن الهداية الواردة في القرآن الكريم على أنواع ثلاثة:

(١) سورة الزخرف : الآية [٣١].



**النوع الأول:** هداية عامة لجميع الناس، المسلم والكافر والبر والفاجر، فالله هدى كل نفس إلى ما يصلح شأنها، وفطرها على جلب النافع ودفع الضار عنها، وهذه أعم مراتب الهداية، هداية الحيوان بفطرته إلى ما يصلح معاشه ويدفع عنه ما يسوء. والعقل في الإنسان أحد مظاهر هذه الفطرة الإلهية التي يشترك فيها مع بقية الكائنات الأخرى قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا.... ﴾ (١). وهذه الهداية تقترن بخلق الكائن في ابتداء أمره وحياته، فهدى الطفل إلى التقام ثدي أمه بدون معلم ولا مرشد، وهدى الحيوان والطير وغيرهما إلى جلب النافع ودفع الضار، وهذه الهداية قد قادت كل كائن إلى الاعتراف بربه وذكره وتسبيحه. قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۝﴾ (٢). وهذه الهداية يقترن ذكرها في القرآن كثيرًا بالخلق للدلالة على أنه سبحانه وتعالى هو الخالق. قال فرعون: فمن ربكما يا موسى؟ قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، قال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه من الخلق لما يصلح به شأنه والاهتداء لما خلق له وهداه إلى ذلك.

---

(١) سورة الشمس: الآية [٧].
(٢) سورة الإسراء: الآية [٤٤].

فالهداية العامة دائما تقترن بنعمة الخلق، لأن الخلق إعطاء الوجود العيني للأشياء، والهداية إعطاء الوجود الذهني والعلمي. فهذا خلقه... وهذا هداه، وكلها هداية عامة وإعطاء تام فكل ما خلقه الله، جعل هدايته ذاتية فيه وليست خارجة عنه.

**النوع الثاني**: هداية البيان والإرشاد والدلالة والتعليم، وهذا النوع هو وظيفة الرسل والكتب المنزلة من السماء. وهو خاص بالمكلفين فقط، وهذه الهداية هي التي أثبتها الله لرسوله ﷺ بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (1). وهي أخص من التي قبلها، وبها تقوم حجة الله على عباده فلا يعذب أحدا من خلقه إلا بعد أن يقيم الحجة عليه بأنه هداه وبين له طريق الغي من الرشاد قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (2). وحتى لا يقول أحد: ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، والله تعالى لم يحل بين أحد من خلقه وبين هذه الهداية بل خلى بينهم وبينها ومنحهم أدوات تقبلها عن الرسل ووسائل الاستفادة بها من العقل والفطرة، وأقام لهم بذلك أسباب الهداية ظاهرة وباطنة، ومن حرم من خلقه بعض الأدوات أو الوسائل التي تساعد العبد على أداء أوامر الله ونواهيه، كزوال العقل أو الصغر أو المرض فقد حط عنه من التكاليف

(1) سورة الشورى: الآية [52].
(2) سورة الإسراء: الآية [15].

والأوامـــر الشرعية بحسب ما حرمه من ذلك، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴿٦١﴾﴾ [(١)].

وقـــال ﷺ : "**رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ. وعن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق**" [(٢)]. كما اتفق رجال الأصول على أنه (إذا أخذ ما وهب فقط سقط ما وجب).

وهذه الهداية هي مصدر التكليف ومناطه وبها تقوم الحجة لله على عباده وتكون المساءلة بالثواب والعقاب. وهي تستلزم الاهتداء من العبد. بدليل أن بعض الناس آمن بدعوة الرسول وبعضهم كفر بها ولكنها سبب في الاهتداء، وحصول السبب ليس كافيا في وجود مسببه لأنه قد يكون هناك ما يمنع ذلك إما لعدم كمال السبب، أو لعـــدم صلاحية القلب القابل للأثر، كأن يطرأ عليه ما يفسده ويغير حاله كابتلاء القلب بالشبهات وازدحام العقل بالشكوك والأمراض.

والســـبب هـــنا لا يجوز القول بعدم كماله، لأنه من جهة الله ســـبحانه، فهو قد بعث الرسل، وأنزل الكتب، والرسل قد بلغت أممها ووضحت لهم سبيل الرشاد فلا نقص في السبب إذن، وإنما لم ينتفع العبد

---

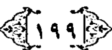
(١) سورة النور: الآية [٦١].

(٢) ورد الحديـــث في مواضـــع كثيرة من البخاري في كتاب الحدود والطلاق وفى مسند ابن حنبل ٦/ ١٦٤.

بما جاء به الرسول لما طرأ عليه من فساد فطرته وطغيان مادته فلم يلتفت إلى هدي الرسل و لم يستفد مما جاءوا به، فالقصور في المحل القابل للأثر وهو الإنسان وليس في نقص السبب كما قال تعالى. ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾[1]. فإن الله هداهم بإرسال الرسول إليهم فلم يهتدوا بما جاء به، فأضلهم الله عقوبة على ترك الاهتداء والإعراض عما جاء به الرسول، وهذا شأن الله في كل نعمة أنعم بها على عباده إذا كفروا بها، فإنه يسلبها منهم بعد أن كانت حظا لهم، لأن الله ﴿ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ولكن يطرأ هنا سؤال هو: إذا كان الله قضى على بعض الناس بالمعصية فكيف تقوم عليه الحجة بالرسالة إذا كان لا يستفيد منها.

وهنا يجب التنبيه إلى التفرقة في الفعل الإنساني بين ما هو من الله، وما هو من الإنسان، فالله قد أكمل الإنسان ومنحه أدوات الاهتداء، وبعث إليه من يهديه، وخلى بينه وبين الرسل، و لم يحل بينه وبين ما يهديه، وإذا حرمه بعض الأدوات فإنه يسقط عنه من التكليف بحسبها، وأقام لهم أسباب الهداية ظاهرا وباطنا، وهذا هو حجة الله على عباده، فلم يمنع أحدا شيئا من ذلك، ولن يحاسب أحدا من خلقه ما لم تقم عليه الحجة بكل ذلك، والقرآن قد قص علينا ما كان من الأمم التي أرسل الله إليها فلم تستفد بهديهم فقال

(١) سورة فصلت: الآية [١٧].



تعالى يصف حالهم في نار جهنم: ﴿ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ ﴾ (١). فالذي حدث من الله هو الهداية ولكن كان من العبد التكذيب والضلال، فكان في مقدور العبد أن يتبع الرسول ويؤمن بما جاء به وليس ذلك شيئًا خارجًا عن قدرته أو فوق طاقته. نعم. في مثل هذه الحالة لن يخلي الله بين العبد ونفسه والنفس بطبعها أمارة بالسوء، إلا ما رحم ربي. فإذا وكل الله الإنسان إلى نفسه قادته إلى الهلاك وهو بذلك يكون قد قطع عنه توفيقه و لم يرد الله أن يعينه على نفسه ليقبل بقلبه على الله. كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ۝٧ ﴾(٢). وهو سبحانه وتعالى إذا فعل ذلك بأحد من خلقه فليس ظالما له. لأنه لم يمنعه من الدلالة أو البيان وهذا في مقدور العبد فعله ولكن حرمه التوفيق والسداد حين أعرض العبد عن هدي الرسول عدلا منه في خلقه وحتى لا يسوي بين من آمن بالرسول واهتدى بهدي ربه وبين من أعرض عن هدي الله والرسول وجحد الكفر.

**النوع الثالث:** هداية التوفيق والسداد والإلهام وخلق الدواعي

(١) سورة الملك: الآية [٨].

(٢) سورة الحجرات: الآية [٧].

للـــخير والهداية، وإيجاد المشيئة من العبد المستلزمة للفعل وهذه المرتبة أخص أنواع الهداية؛ لأنها لا تكون إلا لمن قضى الله له بالسعادة فعلا.

وهذا النوع من الهداية يستلزم أمرين:

**أحدهما:** فعل الرب تعالى وهو الهدي بخلق الداعية في القلب إلى الفعل والمشيئة له.

**الثاني:** فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر للفعل الأول الهدي قـــال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ (1) ولا سبيل إلى وجـــود الأثر الذي هو الاهتداء من العبد إلا بعد وجود المؤثر الذي هو الهداية من الله، فإذا لم يحصل فعل الله لم يحصل فعل العبد.

وهذا النوع من الهداية لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه، ولقد نفـــى القرآن هذا النوع عن الرسول لأنه ليس من وظيفته. قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾(2).

قال أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ (3).

---

(1) سورة آل عمران: الآية [٧٣].

(2) سورة القصص: الآية [٥٦].

(3) سورة الأعراف: الآية [٤٢].

وهـــذا النوع من الهداية لا يعطيه الله للناس بلا سبب يتقدم به العـــبد بين يدي الله، وإنما ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ فاتـــباع النوع الثاني (هداية الرسول) هو شرط في حصول هذه الهداية الخاصة بالقلب، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[1]. والأمـــر في ذلك كما يشاهده الإنسان في عالم الشهادة، فإن من يتقرب إليك ويأتمر بأمرك ونهيك ويكون حيث تـــريد أن يكـــون فإنك ولا شك تنـــزله مكانة أسمى وأرفع من غيره الذي لم يأتمر بأمرك ولا نهيك بل كان حيث تريد ألا يكون.

وهـــذا الـــنوع من الهداية هو الذي نفاه القرآن عن الظالمين والفاســـقين والكذابـــين والمسرف المرتاب .. وكل آية في القرآن وردت في نفي الهدي فيجب حمله على هذا النوع من هداية القلب والتوفـــيق والسداد؛ لأن هداية البيان والدلالة لم يمنعها الله أحد من خلقه لأنها عامة فيهم.

أمـــا هذا النوع (هداية القلب) فهو فضله يختص به من يشاء من عباده، ولا حرج في ذلك.

وهـــذا الـــنوع الذي أنكرته المعتزلة وقالت إن العدل يقضي

(١) سورة محمد: الآية [١٨].

بالتســوية بــين العباد في كل شيء وجعلت آيات القرآن في ذلك النوع من المتشابه، وتتأوله على تأويلات باطلة لا سند لها من اللغة أو العقل. كأن يقولوا المراد بذلك تسمية من يشاء مهتديا أو ضالا. ولــيس في لغة العرب أن قوله تعالى ليس عليك هداهم أو إنك لا تهدي من أحببت على معنى ليس عليك تسميتهم، أو أنك لا تسمى من تشاء مهتديا أو ضالاً. ولكن الله يسمي من يشاء وهذا بلا شك تأويل فاسد لا سند له.

ولا ينال من العدل الإلهي شيء إذا اختص الله بهذا النوع من الهداية من تقرب إليه من عباده وحرمه من حاد وضل عن سبيله. فهو فضله يؤتيه من يشاء، ويمنعه من يشاء وإنما ينال من العدل الإلهي لو حرم أحدا من الهداية العامة ثم حاسبه على أمره ونهيه، والواجب في ذلك أن يعرف أن الله جعل الهداية العامة مقدمة لنيل الخاصة أو الحرمان منها. فهو قد تفضل على الجميع بالهداية العامة، من اهتدى بها بالهداية الخاصة، وهي هداية القلب، وكانت جزاء من الله على من اهتدى الهداية الخاصة تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴿٧٦﴾﴾ (1). والظلم يكون إذا منح هذه الهداية من ليس أهلا لها ولا مستحقا إياها:

---

(1) سورة مريم: الآية [٧٦].

والله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق في قلب العبد الدواعي والمشيئة إلى الفعل الحسن، فيترجح عنده العمل على الترك قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ۝٧﴾ (١). وهذا الفعل الإلهي من خلق الداعية وإيجاد المشيئة ليس حقا مكتسبا على الله لعباده، ولكنه تفضل ورحمة منه بمن آمن بالرسل واهتدى بهديهم، وصاحب الفضل يتصرف فيه كيف يشاء، ويختص به من يشاء من عباده، ويمنعه من يشاء، وهو سبب تام يلزم عنه أثره بالضرورة، وهو ترجيح جانب الفعل على جانب الترك ولو منع الله هذا الفضل أحدا من خلقه فإنه بذلك يخلي بين العبد ونفسه.

والنفس بطبيعتها حية متحركة، وسريعة التحرك لأن الحركة والتحول من حال إلى حال أخرى، من لوازم كونها نفسا، فإذا لم يحركها صاحبها نحو الخير حركته هي نحو الشر، فيترك فعل الخير لأن الله قد خلى بينه وبين نفسه، وينشأ عن تركه فعل الخير أن يتجه إلى فعل الشر عقوبة له على تركه لفعل الخير كما قال تعالى﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ۝١٧﴾ (٢). فيحاسب على فعل الشر الذي فعله هو باختياره وقدرته الكاملة ويكون دور

(١) سورة الحجرات: الآية [٧].

(٢) سورة فصلت: الآية [١٧].

القضـــاء الإلهى هنا أنه خلى بين العبد ونفسه لسبب تقدم به العبد. وهـــو الإعراض عن هدى الله الذي أرسل به رسله ، ولا شك أن هـــذا لا يعـــد ظلمًا ولا قهرًا لأن الله إذا منع فضله لا يكون بذلك ظالمًـــا، بل الظلم يكون بوضع الفضل في غير موضعه، وقد علم الله أزلا أن العـــبد الـــذي يحرم من فضل الله ليس أهلا لـــه فمنعه عنه عدلا وحكمة: وتكون نفس الإنسان هي التي صدته عن تقبل الخير، وقادته إلى سبيل الغي، والإنسان بذلك يكون قد عرض عليه الهدى فأبى، كما قال سبحانه ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾، ومن هنا قال ﷺ : " **الخير بيديك والشر ليس إليك** " (١). وكان يقول في دعائه " **اللهم آت نفسي تقواها وزكها فأنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها** " لأنه كان يعلم أن النفس ما لم يعصمها الله فإنهـــا أمارة بالسوء، فكان يدعو الله أن لا يمنعه فضله وألا يدعه إلى نفســـه طـــرفة عين، وإذا كان معنى الهداية في كتاب الله تعالى يتفاوت بين هذه المراتب الثلاثة:

١ – الهداية العامة – المتمثلة في الفطرة والعقل.

٢ – هداية الإرشاد والدلالة والبيان وهو ما جاءت به الرسل ونزل به الوحي.

(١) ورد الحديـــث في مســـلم ٢/ ١٨٥ (كتاب الصلاة – باب الدعاء) وذكره ابن حنبل في السند ٢/ ١٣٤ ط دار المعارف.



٣- هدايـــة القلوب وهي خاصة بمن آمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا واتبع هدى الرسول.

أقـــول: إذا كـــان معنى الهداية يتفاوت بين هذه المستويات الـــثلاثة فـــلا يجوز لأحد أن يضع آية مكان أخرى أو يفسر معنى الهداية في آية بغير معناها الذي جاءت من أجله حتى لا يظن أحد أن آي القـــرآن يضـــرب بعضه بعضها ويناقض بعضها بعضا. كما قد قـــرأنا أخيرا في بعض الصحف والمجلات، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.



# فهـــرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |